٢٢٤

HARLEQUIN®

روايات احلام

عروس بلا أمس

شارلوت لامب

www.elromancia.com

مرمورية

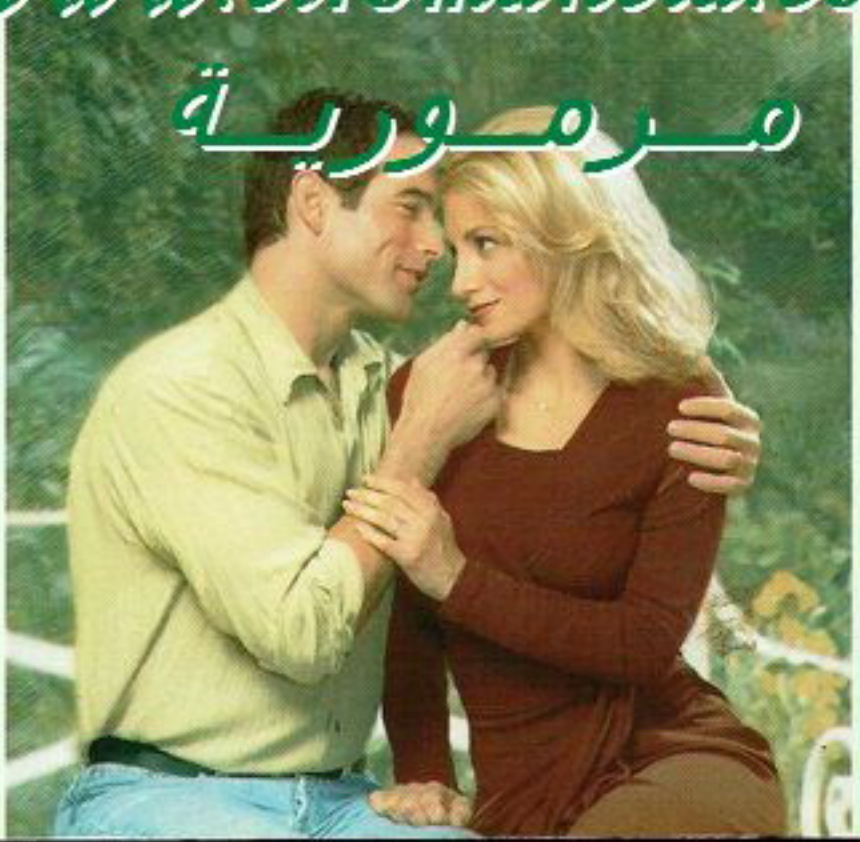

عروس بلا أمس

www.elrommana.com

ـ أريد طفلاً منك!!...

فُرض على جو ليبيت الزواج بسايمون عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها. ثم هربت منه بعد ليلة زفاف مشؤومة، ورمت المسألة برمتها وراء ظهرها. ولكن كان يجب أن تدرك أن ليس بإمكانها الهرب إلى الأبد. لقد ظهر سايمون بعد ثماني سنوات ليسترجعها، وهو الآن يطالبها بالمستحيل. إنما كيف يمكن أن تتحمل حتى التفكير في إنجاب ولد له وهي لا تحبه؟...

شارلوت لامب

ولدت شارلوت لامب في لندن، قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية. أمضت معظم أيام الحرب تتنقل من منزل قريب إلى آخر، هرباً من القصف. تلقت تعليمها في أحد الأديرة وبعد انتهاء دراستها عملت في مصرف (بنك انكلترا). تزوجت من صحفي ورزقت منه بخمسة أولاد. تعيش مع عائلتها في منطقة (أيل أوف مان).

لشارلوت لامب رصيد من الروايات يفوق المئة، معظمها من إصدارات شركة (ميلز أند بونز).

١ ـ الكوخ النائم

كانت جولييت نيوكوم على وشك مغادرة شقتها الواقعة في حي تشلسي عندما سمعت رنين الهاتف، وكادت لا ترد على المخابرة لأن اعمالاً كثيرة كانت بانتظارها في ذلك اليوم ولكنها وجدت صعوبة في تجاهل رنين هاتفها المستمر، فتنهدت وعادت أدراجها.

قالت لها امها في الطرف الآخر للهاتف بصوت متحشرج:

ـ جولي؟ هذا أنا. ما أشد سروري لأنني أدركتك قبل أن تخرجي، فقد خشيت أن تكوني قد أصبحت في طريقك إلى العمل، وأنا مضطرة أن أترك البيت فوراً لئلا يفوتني القطار المتوجّه إلى لندن، خاصة أن وصولي إلى مطار هيثرو من محطة القطارات سيأخذ وقتاً طويلاً.. ياه، ما أكره السفر!

تثاءبت جولييت وقالت: «رويدك يا امي... عمَّ تتكلمين؟ وإلى أين أنت ذاهبة؟».

ـ حسناً، هذا كل ما في الأمر. إنها مجرد أقوال... حسناً، ليلة البارحة، أعني، في منتصف الليل.

لم تدهش جولييت لعدم الترابط في حديث أمها، فقد كانت معتادة على ذلك. فتلك إحدى الخصال التي أسعدها ألا ترثها عن أمها. كانت تعي أنها تشبه أمها كثيراً من حيث الشكل والبنية فكلتاهما طويلتان ونحيلتان تتمتعان بشعر كستنائي كثيف وعينين زرقاوين بشرة ناعمة ووجه بيضاوي ولكنهما كانتا مختلفتين كل الاختلاف في التصرفات والسلوك. فجولييت من النوع

www.elromancia.com

الهادىء والمتمكن من نفسه. أما شيرلي فهي عفوية وغير عملية وانفعالية.

ـ ماذا سمعت؟

سألتها جوليا وهي تحاول التحلّي بالصبر، ولكن كان يجب أن تتذكر أنّ لا أحد يستطيع أن يوقف أمها عن الإسهاب، فشيرلي لا ترضى سرد القصة إلا على طريقتها وإذا قوطعت تفقد صوابها.

أجابتها أمها ببساطة:

ـ أحاول أن اخبرك فأنصتي يا جولييت! تلقيت المخابرة عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. كنت نصف نائمة عندما التقطت السماعة. ولم يكن بإمكاني بالتأكيد حجز مقعد في الطائرة في ذلك الوقت، فكل الشركات والمكاتب مقفلة. عدت إلى السرير ولكني لم استطع النوم، فنهضت ثانية وحزمت حقيبتي وتأكدت أن كل شيء مرتب في الكوخ وحجزت مكاناً على أول طائرة تقلع إلى إيطاليا...

ـ إيطاليا؟

أدركت جولييت الأمر الآن وتجهم وجهها: إنه جورجيو، هل هو مريض؟.

كان زوج أمها قد سافر إلى إيطاليا منذ عدة اسابيع في رحلة عمل لشراء بضائع، وهي مهمة يقوم بها مرتين في السنة لتزويد سلسلة المحلات التي يملكها وأمها، والتي تخصصت ببيع الأحذية الفاخرة المصنوعة يدوياً والمستوردة من مختلف الدول، ولكن إيطاليا هي المورد الأساسي. تكلمت معه جولييت صباح الأمس، وبدا أنه في احسن حالاته، ولهذا تظن أن السوء الذي أصابه كان فجائياً.

أجابتها شيرلي بأسى: «قبض الشرطة عليه!»

وفغرت جولييت فاها بفعل الصدمة وعدم التصديق.

ـ ألقوا القبض عليه؟ جورجيو؟ ما الذي فعله؟

لم يكن جورجيو ممن يتجاوز القانون. وهو آخر من يُتوقع منه ذلك.

فهو يحب العيش السهل والحياة الحلوة التي تتضمن الطعام الفاخر، والسيكار بعد العشاء والملابس المترفة وبيت مريح، وسيارة جيدة وزوجة تعبده وتتلهف إليه. وبدا جورجيو لجولييت دائماً أنه أحد أسعد الرجال في العالم. ما زال رجلاً وسيماً رغم تجاوزه الستين من عمره، بشعره الفضي وعينيه السوداوين، ووجهه الذي لوحته الشمس وبشخصيته الساحرة والمحببة. كانت تعرف أن أمها تعتبر أن الشمس تسطع من محياه، وتعرف أنه يحب أمها كثيراً.

أجابتها أمها وهي تكاد تولول:

ـ ياه! يا جولي، لا اعرف. لم أستطع فهم الأمر.. تكلمت مع شرطي في البداية وتكلم عن امر يتعلق بمخالفة سير. كانت لهجته ثقيلة وبسبب الصدمة التي أحدثها لي هذا الخبر نسيت كل ما أعرفه باللغة الأيطالية... فلم افهم نصف ما قاله. ثم سمحوا لي بالتكلم مع جورجيو لوقت قصير فقط، فقال لي إنه بريء، ولم يفعل شيئاً. شعرت أن الدمع يطفر من عينيه ويكاد يصاب بانهيار... أنت تعرفين كيف هو؟

ـ أتسألينني؟

ابتسمت جولييت بأسى فقد كان جورجيو من الرجال الذين يحتاجون دوماً إلى امرأة ترعاهم. فأمه كانت امرأة صقليانية شديدة السطوة ومتسلطة انجبت اثني عشر ولداً، إناث بمعظمهم، أحبتهم بتملك وتحكمت بهم بقبضة من حديد، ولهذا لم يستطع الزواج قبل بلوغه الخامسة والأربعين، فأمه لم تكن لتتقبل الأمر.. شقيقه الأكبر تزوج بامرأة اختارتها أمه ولكن جورجيو، الابن الأصغر كان المفضل لديها ولم تكن على استعداد لتتخلى عنه إلى امرأة اخرى، وكان جورجيو متعلقاً بها إلى درجة منعته من معارضتها، ولم يتجرأ يوماً على جرح مشاعرها.

تحرر من سطوتها، في النهاية، بعد وفاتها. وتزوج لأول مرة من امرأة قابلها بعد موت أمه بوقت قصير. أما الخارج عن المنطق، فهو زواجه بامرأة

انجليزية كانت تزور جزيرته. لم يكن غريباً أن يفشل هذا الزواج، ولكن ذلك لم يحدث، إذ أصاب هذا الزواج نجاحاً هائلاً، وها هما سعيدان معاً بعد مضي خمس عشرة سنة على هذا الزواج.

أجابتها أمها: «ها أنت تعرفين لماذا يجب أن اسافر بأسرع ما يمكن».

ـ بالطبع... مسكين جورجيو، لا شك أنه في حالة مريعة. هل ترغبين أن أرافقك ايضاً؟ يجب أن أن أتدبر أمر بعض مواعيد العمل لليوم ولن يكون ذلك صعباً. لذا أستطيع أن أدرك رحلة المساء، أنا متأكدة من وجود رحلات إلى إيطاليا....

ـ لا، لا يا عزيزتي، فأنا استطيع تدبر أمري. الأفضل أن تبقي هنا، حتى أستطيع الاتصال بك إن احتجت إلى أي شيء كنقود ومحام.. لا نستطيع أن نتغيب نحن الثلاثة، فمن يعرف ماذا قد يحدث في العمل؟

ابتسمت جولييت قليلاً وأجابت أمها: «بإمكان العمل أن يتأخر لعدة أيام، ولكن سأفعل ما تطلبينه مني، وأنت تعرفين ذلك، هل أستطيع أن أساعدك بشي الآن؟».

ـ شيء واحد فقط، هل تستطعين الذهاب إلى الكوخ في نهاية الأسبوع لتتأكدي من أن كل شيء على ما يرام. لا بدّ أن العمال انتهوا من بناء الغرفة المضافة إلى المطبخ. وما اقصده أن تذهبي بسيارتك إلى هناك لتتأكدي من أنهم قاموا بالعمل بشكل جيد. كان من المفترض أن ترافقهم السيدة كوتمان التي تأتي لتنظيف الكوخ. هل تعرفينها؟ ولكن ابنتها أنجبت ولداً وقد ذهبت للاعتناء بها، ولهذا لا أعرف ما حلّ بالكوخ. والأمر يشغل بالي، فاذا كان بإمكانك...

ـ بالتأكيد اليوم خميس، أليس كذلك؟

حملقت جولييت في الجوار وهي تراجع في ذهنها ما خططت للقيام به في نهاية الأسبوع.

ـ ليس عندي أي شيء هام في نهاية الأسبوع.

إلاّ حضور حفلة مع الرجل الذي تخرج معه هذه الأيام ولكنها قادرة على إلغائها. ومن المهم أن تريح بال أمها مما يشغله:

ـ اسمعي، سأذهب بسيارتي مساء الغد. ولكن تذكري إذا احتجت لمخابرتي بعد الساعة الخامسة من بعد ظهر الغد، أنني سأكون في طريقي إلى الكوخ، فانتظري إلى ما بعد التاسعة مساء حتى تتصلي بي.

ـ بالله عليك، ستقودين سيارتك مسافة طويلة يا حبيبتي. هل أنت متأكدة أن الأمر لا يزعجك؟

ـ متأكدة كلياً. والحقيقة أنني سأستمتع بالابتعاد عن لندن لمدة يومين.. لا تقلقي. فكري في جورجيو فقط، وبلغيه تحياتي وحبي واختاري له أفضل المحامين، وحالما تصلين، اتصلي بالشقيقين لازارو، فهما يعرفانه منذ سنوات وهما صديقان مخلصان، وسيسعدهما تقديم العون له.

ـ ماما... لا تنسي أن تتصلي بي؟

ـ طبعاً يا حبيبتي. يجب أن أسرع الآن وإلا فاتتني الطائرة... إلى اللقاء، سأتحدث معك قريباً.

أقفلت شيرلي ميندلي سماعة الهاتف فيما كانت جولييت تبتسم. والحقيقة أن عليها البقاء إلى جانب والدتها فلا بد أنها سترتبك. نعم لقد أصبحت تجيد اللغة الإيطالية بعد السنوات الطويلة التي قضتها مع زوجها الأيطالي جورجيو، ولكن من المحتمل أن تنسى ما تعلمته عندما يواجهها وضع مثير للقلق.

ترددت جوليات في اتخاذ قرار ثم ارتأت الانتظار لترى كيف ستكون نبرة صوت أمها عندما تتصل بها. ولا شك انها ستتصل بها الليلة إذا أعيتها الحيلة، وباستطاعتها دائماً أن تحجز مكاناً في أول رحلة إلى ميلانو لموافاتها.

كان ينتظرها يوم حافل بالأعمال، منها زيارة ثلاثة محلات من تلك التي يملكها جورجيو وأمها في لندن، وهكذا أزاحت عن ذهنها كل تفكير بأمها وبجورجيو مؤقتاً واسرعت بالخروج إلى مرآب السيارات المجاور للمبنى

الذي تسكن فيه، وركبت سيارتها الحمراء وهي سيارة عملية جداً، فمن جهة يمكن وضع كميات كبيرة من البضائع في صندوقها، ومن جهة اخرى لا تحتاج إلى مساحة واسعة إذا اضطرت إلى ركنها في شوارع لندن المزدحمة.

إن اختيار سيارة عملية دليل على طباع جولييت كما انّ اطلاق اسم رومانسي على ابنتها الوحيدة دليل على طباع امها. لم تكن جولييت تحب اسمها، فمن عادات الأطفال أن يسخروا من زملائهم في المدرسة، وأينما ذهبت في المدرسة كانت تواجه بصرخات الاستهزاء من زملائها مثل، «روميو، روميو: أين انت يا روميو». أو «من أوقع بك على الشرفة يا جولييت». ولكن مع مرور الوقت أخذ معظم الناس ينادونها باسم جولي.

إلا والدها! فكرت فيه فجأة فتجهّم وجهها. فقد استمر بمناداتها جولييت». لأن طبعه العنيد لا يتقبل التغيير. ولم تتمكن جولييت من فهم السبب الذي دفع أمها للزواج به.

كان ازدحام السير على أشده في ذلك الصباح. وعندما وصلت جولييت إلى محل شارع بوند كانت الساعة قد بلغت التاسعة. ركنت سيارتها في الزقاق الخلفي ودارت حول المبنى لتتفحص واجهة المحل ورأسها يميل إلى الجانب. إن هذه الواجهة تجذب النظر حقاً.

وكما يبدو لم يكلّف الديكور إلا القليل من المال، وهذه نقطة إيجابية اخرى.

سرّتها ألوان الديكور الربيعية: الأزرق السماوي الفاتح، والأخضر بلون أوراق الشجر والأصفر. إن الناظر إليها لتبتهج نفسه حقاً. كما استطاعت المسؤولة عن هذا العمل خلق مؤثرات جذابة باستعمال شاش يشبه منظر الغيوم وبإضافة براعم تفاح اصطناعية ووضع لوحة رُسم عليها منظر طبيعي في خلفية الواجهة، فبدت الأحذية ضمن هذا الديكور وكأنها تسبح فوق الغيوم وبين البراعم حتى يظن الناظر إليها أنها خفيفة كالهواء ومن المتعة انتعالها.

يبدو أن الموظفة الجديدة موهوبة لذا يجب إبقاؤها، ووضعت جولييت في ذهنها أن تطلب من مديرة المحل أن تزيد قليلاً من راتب هذه الفتاة. وتذكرت ما قاله لها جورجيو عندما بدأت العمل: من الخطأ أن ندفع رواتب منخفضة للموظفين الموهوبين.

عضت على شفتها السفلى عندما فكرت بزوج أمها.. ما الذي أصابه يا ترى؟ فهو ليس بالسائق المتهور، بل على العكس هو سائق متمرس لا يخالف قوانين السير أبداً.

ـ هل من خطب ما؟.

أجفلت حين سمعت الصوت فارتدت على عقبيها، ولكنها استرخت عندما شاهدت المرأة الشابة الواقفة إلى جانبها.

ـ آه، مرحبا. أنا متأسفة إذ كنت سارحة بأفكاري.

ـ اعتقدت أن واجهة العرض لم تعجبك!.

أجابت جولييت: «يا الهي! طبعاً أعجبتني».

وابتسمت ساندي كارتر التي زال عنها القلق بشأن واجهة العرض، واستعادت عيناها البنيتان بريقهما.

ـ هذا جيد! لقد سررت بها ايضاً، كارين الموظفة الجديدة، قامت بالعمل. إنها تجيد عملها، ألا توافقينني الرأي؟

مالت جولييت وهي تومىء برأسها:

ـ جداً، وبصراحة قررت أن أزيد راتبها قليلاً. يجب أن نتشبث بهذه الفتاة يا ساندي، فهي أفضل مصممة واجهات أتينا بها منذ زمن طويل.

ـ سأبذل ما بوسعي لتكون راضية!.

ـ والذي «بوسعك» أعتبره جيداً جداً!.

أدارت ساندي هذا المحل لعدة سنوات، هي تجيد عملها. والواقع أن الموظفين والزبائن يحبونها فهي قديرة جداً. استلمت إدارة هذا المخزن منذ افتتحت أبوابه.

ردت على ابتسامة جولييت بابتسامة مماثلة وقد سرها المديح وسارا معاً إلى مدخل المخزن والود يلفّهما واتجها إلى مكتب ساندي الصغير. أومأت جولييت برأسها وابتسمت للموظفتين اللتين كانتا تضعان أحذية على الرفوف ولكنها لم تتوقف لمحادثتهما وأوضحت لساندي:

ـ لدي عمل كثير اليوم، فبالإضافة إلى عملي يجب أن اقوم بأعمال والدتي في الوقت الحاضر. لقد اضطرت للسفر إلى إيطاليا فقد حدث مع جورجيو أمر ما..

أنصتت ساندي فيما كانت جولييت تخبرها عن المخابرة التي تلقتها شيرلي ميندلي في الصباح. بدت الدهشة على تلك المرأة مثلما بدت على جولييت عندما سمعت القصة من أمها وأظهرت عدم تصديق ما تسمعه.

ـ جورجيو، من بين كل الناس! أيعقل ذلك؟

وافقتها جولييت الكلام.

ـ ليس جورجيو معتاداً على التطرف في أي أمر. ولهذا هو منسجم مع أمي. فهي بحاجة إلى رجل سلس الخلق مثل جورجيو حتى يستطيع تحمل مزاجها المتأرجح.

ـ كيف استطاع والدك...

بدأت ساندي بالسؤال ولكنها ترددت في إكماله لأن من النادر أن تأتي جولييت على ذكر والدها.

ـ أنا أسفة، ليس هذا من شأني!.

عقدت جولييت حاجبيها وقالت: «ايه، هذا الأمر ليس سراً، فوالدي لم يفهم والدتي قط، وكانت تفقده صوابه. لذا كان زواجهما كارثة منذ اليوم الأول على ما اعتقد».

لم تكن لتخبر أحداً آخر على الإطلاق بهذا الأمر، ولكن ساندي أقرب صديقاتها إليها، وهما تعرفان بعضهما بعضاً جيداً منذ أن عملتا معاً في مخزن شارع اوكسفور منذ سبع سنوات. وفي ذلك الوقت كانت جولييت فتاة

خجولة وغير سعيدة وحساسة ولم يكن باستطاعتها عقد صداقات مع أي فتاة لا تقوم بمعظم الخطوات الآيلة إلى تكوين الصداقة.

ولكن ساندي مختلفة، فهي مرحة وعفوية وودودة من السهل جداً التعامل معها مما جعل جولييت تتقرب منها من دون أن تشعر بذلك.

ساندي امرأة جميلة ولكنها قصيرة القامة وشعرها بني أملس. كانت متزوجة بمسؤول مبيعات يتنقل كثيراً، وكان في أكثر الأحيان يتغيب عن البيت عدة أيام في الأسبوع.

لو كانت جولييت مكانها لكرهت هذا الوضع، ولكن هذا الأمر لم يكن يزعج ساندي.

كانت تسعد دائماً لرؤية زوجها توم عندما يعود من السفر، ولكن لم تكن تبدو عليها قلة السعادة عندما يرتحل. كانت تعيش مع زوجها في مبنى سكني حديث، ويشغل معظم الشقق فيه أزواج شباب، لم ينجب أحداً منهم أولاداً، لذا تعرفت ساندي بسرعة إلى معظم الجيران وأصبحت حياتها الاجتماعية نشطة. وساندي في قمة النجاح في عملها فأملت جولييت أن يحتفظ جورجيو وأمها بها.

المشكلة أن سلسلة المخازن التي يملكانها كانت صغيرة نسبياً ولا يتجاوز عددها الستة، يقع معظمها في لندن إلا واحد افتتحوه في مدينة مانشستر مؤخراً.

أقامت أمها مع جورجيو عدة أشهر في هذه المدينة للاشراف على انطلاق المخزن ومدى تقدمه. كان المشروع ناجحاً وكانا سيفتتحان مخزناً آخر في السنة القادمة، ولكنهما لا يستطيعان دفع رواتب عالية تماثل ما قد تعرضه سلاسل المخازن الكبرى على ساندي. إذا استمرا بالتوسع، فلا شك أنه سيأتي يوم، حيث يمكن لساندي أن ترتقي إلى مركز إداري وهو على الأرجح ما تسعى إليه. كانت جولييت تعي ذلك، ولكن ذلك كان أشبه بحلم مستقبلي يستحيل تحقيقه قبل سنوات، فهم لا يستطيعون المخاطرة بالتوسع

www.elromancia.com

أكثر حتى تصبح الاستدانة من المصارف أكثر سهولة وبفوائد قليلة.

سألتها ساندي قاطعة عليها الأفكار التي حملتها بعيداً:

ـ أنت لا تتصلين بوالدك أبداً، أليس كذلك؟

أجابت بصوت جاف وأجش «كلا»، ثم التقطت بسرعة لوائح حسابات الشهر الفائت التي كانت ملقاة على طاولة المكتب ضمن ملف مفتوح.

ـ حسناً يا ساندي يجب أن نتابع العمل.

قالت ذلك فيما كانت عيناها مركزتين على الأرقام المطبوعة.

ـ أنا آسفة. الأمر ليس فقط القيام بأعمال والدتي ولكنها طلبت مني ايضاً الذهاب إلى (كورنول) في نهاية الأسبوع فقد تعاقدت من أجل توسيع الكوخ ولم تسنح لها الفرصة لتتفقد العمل بعد انتهائه، ولهذا وعدتها بالمرور على الكوخ غداً.

ـ المرور على الكوخ؟

أعادت ساندي الكلام وراءها، هازئة قليلاً فاغرة فاها: «إنه يبعد ساعات بالسيارة! سيكون الطقس جليدياً هناك».

ضحكت جولييت لأن نبرة ساندي بدت كأن كورنول هو القطب الجنوبي.

ـ لا أستطيع الادعاء أني متشوقة لقيادة السيارة هذه المسافة الطويلة، خاصة مساء يوم الجمعة، بعد أسبوع حافل بالعمل. ولكن لا أريد منها أن تقلق بشأن الكوخ خاصة وهي متكدرة جداً مما حدث مع جورجيو.

ـ ولكن... ألم تكوني ذاهبة إلى الحفلة الاجتماعية الراقية مع آدم؟.

شدت جولييت عضلات وجهها وقالت: «نعم، ولا اعرف كيف سأخبره عن عدم تمكني من مرافقته».

ـ ألا تستطعين الذهاب إلى كورنول اليوم والعودة قبل موعد الحفلة؟

ـ لا، لدي عدة مواعيد هامة ولا أستطيع تأجيلها، وعلى أي حال، أريد أن أبقى بالقرب من مطار هيثرو لأتمكن من موافاة والدتي في حال اتصلت بي وطلبت مني الحضور فوراً إلى ميلانو. إنما أظن أنه مع حلول مساء الغد ستكون قد عرفت تماماً ما هي المشكلة.

أومأت ساندي برأسها تعاطفاً وقالت: «سيتفهم آدم الأمر بالتأكيد، فالعائلة دوماً تحتل صدارة الأولويات.

ابتسمت جولييت قليلاً: «فلنأمل ذلك، فهذا هو الحفل السنوي الذي تقيمه شركته وسيحضر إليه كل مديري الشركة، ويرغب آدم في إعطاء انطباع كبير عن نفسه. ولشدة اهتمامه، رافقني لشراء الثوب الذي كنت سأرتديه للحفلة، للتأكد من أنه يناسب هذا الحفل الراقي، ولهذا لن يسرّ أبداً عندما يعرف أنني سأذهب إلى كورنوول عوضاً عن مرافقته إلى الحفل. ولا أرى أن بإمكاني العودة مساء السبت فسأكون مرهقة بعد قيادة السيارة لساعات وأشك في قدرتي على العودة إلى قيادة السيارة بعد وقت قصير من وصولي إلى كورنوول».

وافقتها الرأي.

لكن عندما تكلمت جولييت مع آدم يورك في المساء لم يكن متفهماً البتة إذ التهب غيظاً واحمر وجهه وتصلبت قسماته، وتطاير الشرر من عينيه.

ـ لا يمكنك أن تكوني جادة! يجب أن تذهبي! فأنا لا استطيع الذهاب بمفردي إلى الحفلة وسيظن الآخرون أنك تخليت عني! وسأبدو مغفلاً!.

لا شيء يمكن أن يثير الرعب في قلب آدم أكثر من احتمال أن يبدو مغفلاً. وجولييت تعرف ذلك عنه ونظرت إليه بأسى، فهي تدرك السبب الذي يجعله كثير الاهتمام بمقامه. لقد نشأ في بيئة فقيرة وتسلق سلم النجاح بسرعة كبيرة إلى درجة يشعر معها احياناً بالدوار ويجعل رأسه يسبح في الفضاء وهذا ما يجعله يخاف من السقوط. كان يشعر بالحاجة ليبدو متحكماً بكل ما يجري حوله.. يستعمل الوقار سلاحاً. ومخاوفه الباطنية هي السبب

www.elromancia.com

في انجذابها إليه، وبصراحة لن يشعر آدم بالرضى إذا اخبرته بذلك. كان بإمكانه أن يكون حلو المعشر إذا ما توقف عن الادعاء بأنه مدير كبير قاسي القلب.

- أنا آسفة يا آدم. أعرف كم تعني لك الحفلة، ولكن المسألة مسألة أولويات...

تقلصت عضلات وجهه غضباً وقال: «لقد فهمت، أنا في المرتبة الثانية في سلم الأولويات، بعد كوخ أمك، أليس كذلك؟».

- لم أعنِ ذلك.

- بلى، لقد عنيت ذلك، فأمك تطلب منك أن تقودي سيارتك مئات الكيلومترات لتفقّد كوخها، فتتخلين عني وعن اتفاقنا لحضور الحفلة من دون أي تفكير. ومهنتي لا تهمك أبداً، أليس كذلك؟ لقد أوضحت لك مراراً وتكراراً مدى أهمية هذه المناسبة لي... رئيس مجلس الإدارة سيكون هناك! وهو يراقص دائماً أجمل الحاضرات وقد يختارك.

- وقد لا يلاحظني أبداً.

انتفض آدم قائلاً: «إن زوجات وخطيبات المدراء يجذبن الاهتمام دائماً! وكلما كان منصب المدير عالياً بات من المهم أن يكون لديه امرأة متميزة بحضورها».

- آه، شكراً، إذن هذا ما أمثله، أليس كذلك؟ امرأة متميزة بحضورها؟

الآن أخذ الغضب بجولييت أيضاً وأصبح لون وجهها ورديا.

- أنا لست احدى ممتلكاتك يا آدم، ولا يمكنك أن تعرضني ليقوّمني رئيسك مرة في السنة؟ قل لي هل أحصل على علامة من عشرة؟ كيف يحسبون الأمر؟ علامة على الثياب؟ علامة على الشكل؟ وبأي شيء آخر تقوّمون المرأة؟ وهل يا ترى سأطبخ العشاء لأعضاء مجلس الإدارة في القريب العاجل لتبرهن لهم أنني طاهية ماهرة أيضاً.

أجابها هازئاً وهو يقبض يديه وكأنه على وشك لكمها:

- لا تتفوهي بهذه السخافات، فأنت تعرفين ما أعني. فمن الضروري أن ترافقيني لمناسبة كهذه مرة واحدة في السنة، وهذا الطلب ليس بالكثير. أليس كذلك؟ سيحضر الجميع: المدير العام ورئيس الدائرة.. الجميع! لقد كلمتهم عنك وهم يتوقعون حضورك...

التقت عيناها بعينيه وقرأت التعابير التي ارتسمت فيهما. أدركت فجأة أن آدم تفاخر بها، فشركة عائلتها حظيت بسمعة كبيرة مؤخراً لأن أعمالها توسعت خارج لندن. وهكذا اصبحت فتاة مناسبة جداً لرجل طموح مثل آدم، وإذا لم ترافقه ستجرح كبرياؤه ونظرته إلى نفسه. على الأرجح لن يفتقدها بل كل ما في الأمر أنه يرغب بالتفاخر بها. ترددت، لأنها حارت بماذا ترد عليه، فقد انزعجت منه وشعرت بالأسف عليه في آن واحد.

اقترحت عليه في النهاية:

- هل هناك امرأة اخرى يمكنك اصطحابها؟

نظر إليها وكأن مساً من الجنون قد اصابه.

- امرأة اخرى؟ هل تريدين مني حقاً اصطحاب امرأة اخرى؟.

ران عليها الصمت إذ أدركت فجأة فظاعة ما قالته للتو. بدا آدم من نبرة صوته غاضباً جداً وكأنها اقترحت عليه ارتكاب خيانة فظيعة. خيّم صمت متوتر بينهما وحاولت جولييت أن تقطعه بأي قول لتغطية ما كشفت عنه كلماتها، لها وله.

جرى تبادل هذا الحديث فيما كانا يتناولان عشاءً خفيفاً، حساءً ساخناً وسلطة. واتبعاه بالفاكهة. فلما طال الصمت، نهض آدم من مكانه إلى الطاولة ودفع الكرسي إلى الوراء بشدة جعلته ينقلب على الأرض. ثم ارتدى معطفه الباهظ الثمن واستدار نحوها وهو يضع قفازاته الجلدية.

- لم يعد هناك ما يقال، أليس كذلك؟

أضاف: «إما تأتين معي إلى الحفل، وإما لا تأتين، فإن اخترت الخيار الثاني فهذا يعني أن كل شيء بيننا انتهى. اعلميني بقرارك غداً مساءً».

فتح الباب، وتمهل محاولاً أن يظهر على وجهه التهذيب. «أشكرك هلى هذا العشاء كان لذيذاً».

حالما أغلق الباب أحست برغبة هستيرية في الضحك. ما هذه الطباع عند آدم؟ لقد تصرف برسمية ولباقة بعدما أعطاها إنذاراً نهائياً. ثم توقفت عن الضحك. لماذا لم تدرك حتى الآن أن مشاعرها نحو آدم ليست عميقة؟ لوت شفتيها، ولكن ألم تعرف حقاً؟ هل تخيلت في أي وقت أنها جادة بالالتزام معه؟ لم يكن لديها النية لإقامة علاقة جادة... ولم يخطر في ذهنها أن آدم كان يظن أنها جادة، أو يكون هو نفسه جاداً.

تمددت على السجادة أمام مدفأة الحائط الكهربائية التي كانت تضيء ما حولها، وحاولت أن تستجمع افكارها، والتكهن بمشاعر آدم. ما الذي تعنيه تماماً بكلمة... جاد؟ ما الذي تريد قوله؟ أتقول إنه واقع في حبها؟ قطبت جبينها عندما روادتها هذه الفكرة، ثم ضحكت للحظة. فهو لا يشعر بهذا الشيء الذي يأخذ بتلابيب القلب.

لا شك أن آدم اتخذ قراراً، بعد تفكير عميق، وهذه طريقته في اتخاذ القرارات المهمة. فالمهم أنها تملك الصفات التي تجعلها زوجة مناسبة لمدير إداري شاب وناجح. وعلى أي حال، ما شأن الحب بالزواج.

لا شخص بكامل عقله يتزوج عن حب.. فليس ذلك هو الأساس لاختيار شخص لمشاركته الحياة وإنجاب الأولاد معه. أليس كذلك؟ لم تكن جولييت تثق بالحب. الحب يقلب المرء رأساً على عقب ويوتر الأحاسيس ويجعلك ضعيفاً، ويتخلى عنك ولا يدوم طويلاً. وأسوأ ما فيه أنه يتركك بائساً. وقعت جولييت بالحب ذات مرة وما زال الجرح يؤلمها أحياناً وكأن جرحها أشبه بالندوب التي تخلفها المعارك على اجساد المتحاربين. وهي لا تنوي أبداً الوقوع في الحب ثانية، ولحسن الحظ استطاعت حتى اليوم البقاء بعيداً عن أي احتمال للانجذاب بهذه الشدة إلى شخص آخر.

كانت تشعر بالأمان التام في علاقتها مع آدم، فهي معجبة به ولكن ليس

إلى درجة الحب. كانت رفقته ممتعة ولديهما الكثير من الأصدقاء المشتركين ويشعر الجميع أنهما مناسبين لبعضهما البعض. حازت صداقتهما على رضى أصدقائهما... وعلى رضى أفراد أسرتيهما، والدليل على ذلك ابتسامات ونظرات أمه وأمها.

لماذا بحق الله لم تدرك بأي اتجاه تهب الرياح؟ وكيف خفي عنها ذلك كل هذا الوقت الطويل؟ هل فضلت في عقلها الباطني ألا تعرف؟ فقد كان مناسباً جداً أن تكون برفقة رجل متميز، رجل يحوز على إعجاب أمها وجورجيو، رجل يعرف معظم أصدقائها ويشغل منصباً يأخذ كل وقته ما يعني أنه يتفهم متطلبات عملها.

عضت على شفتها وزاد عبوسها. نعم، إنه يعجبها ولكن ليس بما يكفي لدفعها إلى التفكير بأن يكون شريك حياتها. هل ذلك مؤكد؟ قد يكون ما حدث بينهما هو الأفضل، فهذا كان بمثابة إنذار لها، والآن، يجب أن تتخذ قراراً مهماً جداً. ولكنها كانت متعبة كثيراً هذه الليلة.. نظرت إلى ساعة يدها ونهضت لتذهب إلى غرفة نومها. ستنام الآن، وغداً تقرر.

كانت متعبة أكثر مما تتخيل ولهذا لم تستيقظ على رنين المنبه، وأجفلت عندما استيقظت ووجدت أن الساعة تجاوزت الثامنة مما يعني أنها ستتأخر عن العمل.

بدأ نهارها الصعب بداية سيئة. كانت على عجلة منذ لحظة استيقاظها مما جعلها تضع جانباً كل تفكير بآدم، ولم تعاود التفكير فيه إلا اثناء قيادتها السيارة خارج لندن لتتجه إلى الطريق السريع.

عرفت في قرارة نفسها أنها اتخذت قرارها من دون حاجة للتفكير بالمسألة، فهي لم تتصل بآدم، والصمت جواب بذاته. وهو سيدرك معنى ذلك. قد يحاول إقناعها لو اتصلت به أو يصب جام غضبه عليها ثانية، وكانت متعبة لا تستطيع مواجهة أي من الأمرين أو تحتمله. لن يجد آدم

صعوبة في العثور على امرأة ترافقه لأنه ـ وإن لم يكن رجلاً وسيماً ـ رجل جذاب. طويل ونحيل، وجهه رفيع وشعره بني أملس وعيناه زرقاوان شاحبتان. أحياناً كانت تجد صعوبة في استرجاع صورة وجهه في ذاكرتها. وهذا هو الواقع فلم يكن آدم من الأشخاص الذين يعلقون في الذاكرة. رغم أنه كان انيقاً ومرغوباً وكانت تعرف أن نساء أخريات كن ينجذبن إليه وأنه سيعثر سريعاً على امرأة أخرى.

سأفتقده، قالت في نفسها وهي تزم وجهها، لقد انقضت عدة شهور منذ بدأت الخروج معه وقد اعتادت على ذلك.

ليكن ما يكن! تنهدت وركزت على قيادة السيارة فلا جدوى من التأسف على الأمور المستحيلة، لحسن الحظ لم يكن السير مزدحماً. بعد الظهر تلقت أخباراً من أمها التي أخبرتها بأن محامي جورجيو تمكنوا من إثبات أن السائق الآخر هو المسؤول عن حادث الاصطدام، كما ذكرت لها أنهما سيعودان إلى ديارهما خلال عدة أيام إذا لم يطرأ أي أمر.

نظرت إلى ساعة السيارة، وفكرت أن وصولها إلى الكوخ لن يستغرق وقتاً طويلاً. والواقع أن جولييت لا تحب قيادة السيارة لمسافات طويلة في الليل. إنه شهر آذار وقد تقلب الطقس بعد الظهر وساء، وهبت رياح باردة من الشرق.

خيّم الليل، ولكن كان هناك وميض غريب في الأفق، ولم يكن انعكاساً لأضواء الطريق، بل مختلفاً كلياً. فركت جولييت عينيها وقد أصابتها المفاجأة والحيرة، حدقت ثانية. ما هذا؟ إن ذلك لا يبشّر بالخير.

ثم شاهدت ندف الثلج البيضاء الطرية وهي تصطدم بزجاج السيارة الأمامي وشعرت بقلبها يهوي بين جنبيها وراعها سقوط الثلج فهي لم تضع في حسابها ذلك عندما وافقت على المجيء إلى هنا.

وتحول تساقط الثلج الخفيف إلى عاصفة ثلجية. وأخذت تفكر أنها لن

تتمكن من الوصول، ولكنها أخيراً وصلت إلى الكوخ الصغير المنعزل الذي يقع على أطراف أراضٍ بور وعلى مقربة من شاطىء البحر.

لقد بني هذا الكوخ منذ مئتي سنة ليستخدمه رعاة الغنم. إنه مسكن صغير وبسيط، غرفتان في الطابق الأرضي وغرفتان في الطابق العلوي، بنيت الجدران من الصوان الأسود والسقف من حجر الأزور الطري. والآن جرى تجديد الكوخ، فقد أضيفت إليه بعض التعديلات، مثل غرفة حمام ومطبخ ريفي منمنم وتدفئة مركزية. أوقفت جولييت سيارتها أمام باب الكوخ وتنفست الصعداء، وبدا أن يديها قد تجلدتا على مقود السيارة. التقطت المفتاح وهرعت خارج السيارة وفتحت باب الكوخ ثم هرولت إلى السيارة مجدداً لأخذ حقيبتها.

رن الهاتف فيما كانت تتناول الملعقة الأولى من الحساء الذي أعدته، فأوقعته على ملابسها وأطلقت صرخة فزع.

قفزت من مكانها ومسحت الحساء عن ملابسها بقطعة قماش وجرت لالتقاط السماعة. ردت بأنفاس لاهثة وهي تتوقع أن تسمع صوت أمها: «آلو، مرحباً».

بعد برهة من الصمت، جاءها صوت أجش يسأل: «السيدة ميندلي؟».

أصيبت جولييت بالخيبة وأجابت بصوت جاف: «لا، هي غير موجودة في الوقت الحاضر، لقد سافرت إلى إيطاليا مع زوجها. هل تريد أن تترك لها رسالة؟».

ران الصمت ثانية ثم سأل: «من أنت؟».

سبب لها هذا الصوت من دون سبب القشعريرة في ظهرها، رعشة عفوية وبدائية. لم تميز صوت الرجل ومع ذلك كادت لا تجيب عن سؤاله، وهذا سخيف!

لم يتعد ذلك السؤال معرفة من يتكلم على الخط الآخر! وهو سؤال عادي جداً، اليس كذلك؟ وسألت نفسها، ما هي المشكلة؟.

أجابت ببطء: «أنا ابنتها».

ولكنها صدمت ثانية عندما سمعت صوت السماعة وهو يقطع الخط. بعد لحظة من الذهول أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها وهي عابسة. إنه قليل الأدب.

عادت إلى طاولة المطبخ وجلست.. من يكون هو؟ لم يكن حولهم جيران وأقرب منزل يقع على بعد كيلومتر ونصف عن الكوخ. ولو كان الداعي شخصاً تعرفه لأخبرها بذلك ولم يكن ليقفل الخط في وجهها من دون أن يتكلم.

لم تشعر بالتوتر لوجودها في الكوخ وحدها حتى الآن، ومع ذلك غسلت يديها وصعدت إلى غرفة النوم وهي تشعر بشيء من التوتر النفسي، وكان أضعف صوت يشد أعصابها. ظلت ترتعش وكلها آذان صاغية.. هل هذا صوت صفيق الأشجار أم صوت رجل يدور حول البيت؟ هل هذا صوت صرير السقف أم صوت انسياب السائل في أنابيب التدفئة المركزية؟.

أتت إلى هنا من اجل تفقد أعمال البناء التي تعاقدت أمها على القيام بها. ولهذا قامت بجولة تفقدية وهي تحاول أن تقنع نفسها أن ما تقوم به ليس بهدف التأكد من عدم وجود شخص آخر في الكوخ.

تأكدت من أن كافة الأبواب والنوافذ مغلقة جيداً، ولم تجد ما يدل على وجود شخص ما في الخارج، وكان الثلج الناصع يتلألأ تحت الأضواء المنبعثة من البيت. واخيراً أطفأت أنوار الطابق الأرضي.

استحمت، وشعرت أن عضلاتها المتعبة استرخت في الماء الدافىء والمعطر ثم ارتدت البيجاما الشتوية التي جلبتها معها، لأنها تعرف مدى برودة الكوخ في شهر آذار. كان سريرها قد أصبح دافئاً بفعل الغطاء الكهربائي فقطعت عنه التيار وأطفأت المصباح في السرير. ولأنها كانت مرهقة، استغرقت في النوم بسرعة.

في وقت لاحق، استيقظت وكأن الكهرباء صعقتها. جلست في السرير وعيناها شاخصتان. كانت ترتجف وكأنها استفاقت من كابوس. لم تدرك أين هي للوهلة الأولى وحدقت فيما حولها، وميزت تدريجياً ظلال الأثاث وتذكرت سبب وجودها في هذا المكان.

كانت الغرفة ممتلئة بهذا الوميض المزعج الذي رأته وهي تقود سيارتها، انعكاس ضوء القمر والنجوم على الثلج في الخارج.

كانت على وشك الاستلقاء ثانية عندما سمعت صرير خشب أرضية الدرج خارج غرفة نومها، فسقط قلبها بين ضلوعها وحدقت في الغرفة فهنالك شخص واقف خارج غرفتها.

بدأ باب الغرفة بالانفتاح قبل أن تسنح لها فرصة التفكير ورأت على ضوء الثلج الأبيض المنعكس ظهور شكل على مدخل الباب؛ شكل طويل متعالٍ، ارتسم على هيئة رجل.

* * *

٢ ـ لن تفلتي مني!

أرادت جوليا أن تصرخ ولكنها لم تستطع. بدا أن حلقها قد تخدّر، وفمها قد خرس، مع أنها كانت تصرخ في داخلها، وطالت هذه اللحظة أكثر فأكثر فيما كانت تحدق إلى الشخص الواقف بالباب دون حراك.

ثم تقدم فجأة بخطوات عريضة وصامتة باتجاه سريرها، ويبدو أن ذلك أطلق عقال صوتها. لم تولول بل أطلقت صرخة مدوية مرتجفة وتقوقعت على نفسها واستندت إلى لوح السرير الخلفي، وعيناها الجاحظتان تراقبانه كعيني حيوان خائف ومحاصر. كان الرجل مرتدياً الأسود من رأسه حتى قدميه، ورأسه مغطى بالسواد أيضاً، فهي لمحت شعره الأسود. ليتها تستطيع رؤية وجهه! فربما يزول عنها هذا الخوف المريع. ولكن ضوء الثلج المنعكس لم يكن كافياً لتتبين ملامحه.

كان قد أصبح على بعد قليل منها عندما استعادت القدرة على التفكير. ما الذي تفعله؟ إنها متجمدة في مكانها، بانتظار وصوله إليها؟ يجب أن تهرب.

قفزت عن السرير وأخذت بالجري نحو باب الغرفة المفتوح ولكنه كان أسرع منها، فانطلق نحوها مثل لاعب كرة ومد ذراعيه للإمساك بها. صرخت جولييت، وتابعت الصراخ ثم سقطت على الأرض معه، حيث تدحرج جسماهما على السجادة.

ـ من الذي سيسمعك؟

همس ذلك بنبرة خشنة، وكان على حق، إذ ليس حول هذا المكان منازل، وقد تم اختياره خصيصاً لأنه يبعد أكثر من كيلومتر ونصف عن أقرب مكان مأهول، ولأنه مكان بعيد عن زحمة الحياة العصرية، مكان هادىء وآمن. يالسخرية القدر فكيف تأتيها هذه الأفكار وهي في هذا الموقف.

ـ سيعود زوجي من العمل قريباً، وقد يصل في أي لحظة...

حاولت أن يكون كلامها مقنعاً، ولكنه ضحك منها.

ـ آه، أنا خائف جداً!

فجأة ميزت الصوت، وأدركت أن هذا الصوت كان منذ البداية مألوفاً على مسامعها.

إنه الرجل الذي اتصل بها في المساء، لا شك أنه كان يحاول أن يعرف إذا ما كان في الكوخ أحد، وعندما عرف أنها موجودة بمفردها...

ولكن من هو؟ فكرت بيأس. واستولى عليها شعور غريب مزعج بأنها تعرفه حق المعرفة. خفق قلبها بشدة بين ضلوعها وهي لا تستطيع تحمل حتى التفكير في ما يخطط له.. استدارت حول نفسها فجأة وفي نيتها النهوض والهرب، ولكنه كان أسرع منها تفكيراً، فمد ذراعه وأحكمها حول خصرها.

استلقت على جانبها وظهرها له، حاولت أن تبعد ذراعه عنها. وقاومت بضراوة، ولكنه التصق بها مما جعل تماس جسميهما حميماً. ثم ما لبث أن دس يده الأخرى تحت خاصرتها كي يشدد إمساكه بها.

كانت جولييت تتنفس بسرعة إلى درجة الشعور بالألم وكانت تئن بصمت واغرورقت عيناها بالدموع الساخنة وأصيبت بصدمة خوف اخرى عندما شعرت أن يديه تنسابان إلى الأعلى. وأخذ يدلك جسمها، مما جعلها تنكمش على نفسها وكأنها أصيبت بطعنه سكين، وتحاول التخلص منه وهي

تنوح: «لا، لا».

وفي هذه المرة، لم يحاول منعها، بل تركها تتحرر من قبضته. توقعت أن يجرها إليه ثانية، مثل الفأر الذي تعذبه القطة فتسمح له بالهروب، فقط لتمسك به ثانيةً بعد لحظات.

جلس في مكانه يراقبها وهي تجري نحو الباب، تشعر بالحيرة والهلع.

يجب أن تهرب منه، كان رأسها يعصف بوضع مخططات سريعة للهروب. لو استطاعت أن تتقدمه ببضع خطوات لتمكنت من الوصول إلى السيارة، ولكنها تذكرت أن مفاتيح السيارة في حقيبة يدها الموجودة في غرفة النوم، ومحاولة الهروب جرياً على الأقدام في الأراضي البور في هذا الطقس، أو حتى سلوك الطريق المؤدي إلى أقرب قرية أشبه بالانتحار. الثلج عزلهما وكأن هذا الكوخ جزيرة وسط بحر متجمد.

ـ ليس هنالك من مكان تهربين إليه يا جولييت.

قال ذلك وكأنه يقرأ افكارها.

تجمدت أوصالها عند باب الغرفة، وتشوّشت مشاعرها، واعتقدت أنها ستصاب بالجنون، وأن هذه الألفة الغريبة المزعجة التي شعرت بها كان وهماً وخيالاً، ولكنها عرفت الآن أنه لم يكن خيالاً.

ـ أنت... أنت...

عندما استدارت ونظرت إليه، قفز على قدميه ولكنه لم يكن يلاحقها، بل وقف ببساطة في مكانه يحدق إليها ويحدق إليه ثم أخذت تتبين ملامح وجهه القابع تحت الشعر الأسود الكثيف.

أنف طويل ومستقيم وذقن مشدود وفم عريض وقاسٍ. وعينان... هاتان العينان... الرماديتان والباردتان والمؤثرتان... وسحبت نفساً عميقاً من شدة الهول. إنه هو!!

ـ لن تستطيعي الإفلات مني، ليس هذه المرة.

وترددت أصداء كلماته في عقلها.

رددت من بعده بصوت مرتفع وقد بدأت بالارتعاش ثانية: «هذه المرة؟».

ـ حتى لو استطعت تشغيل السيارة فلن تستطيعي الابتعاد بها كثيراً. لقد بلغ ارتفاع الثلج علو السور، وقد اضطررت إلى ترك سيارتي والسير على قدميّ حوالى ٧٠٠م، واعتقدت أنني قد لا أتمكن من الوصول، كما أن خطوط الهاتف المحلية انقطعت. لقد تضرر كل شيء بفعل الريح، وزاد الثلج الأمور تعقيداً.

بدت نبرته واقعية. كيف يستطيع التكلم بهذه الطريقة ويبدو مستريحاً، بينما أذناها تضجان بذكريات حاولت دفن أشباحها عميقاً منذ سنوات؟.

ـ من أنت؟

همست ذلك مع أنها تعرف من هو، لقد تعرفت إليه عندما نطق باسمها. ربما عرفت صوته عندما تكلم معها على الهاتف لأن شيئاً ما في مكنونات هذا الصوت أرسل قشعريرة في جسمها. لم تستطع استجماع أفكارها ووضعها معاً فعقلها الباطني لم يخبر عقلها الواعي بما يعرف، ولكن في مكان ما داخل رأسها كانت تعرف ولم تدرك ذلك حتى الآن.

ـ أنتِ تعرفين من أنا.

أجابها بسخرية، وكأنه يقرأ ما يدور في عقلها ثانية، الأمر الذي أزعجها أكثر. فهي لا تريد منه أن يقرأ أفكارها ويتكهن مشاعرها وكل ردات فعلها. إنها بحاجة إلى وضع قناع على وجهها، لتخبيء تعابيره عنه.

ـ لا. لا أعرف.

كذبت عليه وهي تتمنى لو كان ذلك صحيحاً رغم أنها تعلم أن ذلك ليس وهماً.

مد يده إلى مصباح الطاولة القريب من سريرها وصرخت بصوت خشن، «لا، لا تضيء النور».

لم تكن ترغب في رؤية وجهه، ولم تكن ترغب أن تتوضح الصورة نهائياً، لأن الضوء الغريب المنعكس عن الثلج كان يجعل من وجودها معه في هذا المكان شيئاً أشبه بالحلم، غامضاً وغير حقيقي، وإذا أضاء نور المصباح فسيزول السحر ويعود بهما إلى العالم الواقعي.

سألها بسخرية باردة:

ـ أتخافين مواجهتي يا جولييت؟

ردت عليه بغضب: «لا».

ـ هل تفضلين الأمر في الظلام.

كان في نبرة صوته معنى مزدوج جعل خديها يتوردان.

ـ أنا أفضل أن تبتعد عني... الآن!.

ضحك بخفة وقال: «ألا تريدين أن تري كم تغيرت؟ فأنتِ تغيرتِ. أستطيع أن أرى ذلك حتى في الظلام. كنت نحيلة جداً عندما كنت في السابعة عشرة من عمرك، وكان جسمك خالياً من التضاريس مثل الصبيان...».

توقف قليلاً ثم تابع بنبرة ساخرة: «أما الآن، فلا أحد يستطيع أن يتجاهل أنك تملكين جسداً جذاباً».

انفجرت به غاضبة: «اخرس».

تأججت النار في وجنتيها فأخذت ترتجف من شدة الغضب.

ـ أن، أن، أنت لا يحق لك! أن... تلمسني بهذه الطريقة! لقد افقدتني صوابي من شدة الخوف. وظننت أنني قد أقتل في أي لحظة.

ـ لم يكن في نيتي أن يحدث اللقاء بهذه الطريقة.

ـ صحيح؟

أجابها وقد فقد صبره:

ـ صحيح. اسمعي، كان يجب أن أقابلك وعندما اتصلت بشقتك لم يجب أحد، ولهذا اتصلت إلى هنا، وعندما أجبت عن المخابرة قررت المجيء

إلى هنا فوراً.

أكملت عنه بنبرة اتهامية:

ـ واقتحام الغرفة ومهاجمتي!.

ـ أنا لم أهاجمك!.

ـ وبماذا تفسر الذي حدث؟ لقد أوقعتني أرضاً.

ـ كان يجب أن امنعك من الهروب لأنك تصرفت بغباء مثل مجنونة.

ـ لقد أوقعتني على الأرض، ثم بدأت...

لم تكمل بل وضعت يديها على وجنتيها اللتين علاهما الاحمرار.

ـ أنا بشر ولست حجراً... كنت ملتصقة بي بصورة منعتني من لجم نفسي.

شرح لها ذلك دون أن تظهر عليه أي إشارة تدل على الندم.

ـ أتعني أنك استمتعت بتخويفي!.

ران الصمت قليلاً ثم أطلق ضحكة قصيرة: «نعم ربما تمتعت بذلك. كنت غاضباً منك... و... نعم، ربما استمتعت. ولكني لن أقدم الاعتذار يا جولييت، ليس بعد كل ما فعلته معي».

جاء دورها لتدخل في صمت طويل وتعض على شفتيها. ولم ينبس أي منهما ببنت شفة لبضع ثوان. وكان هو من بدأ الكلام بالنبرة الناعسة والمتهكمة ذاتها.

ـ حتى شعرك تغير. أتذكر أنك كنت تعقصينه على شكل ذيل طويل يصل إلى خصرك وأتذكر كيف كان يتأرجح خلف ظهرك يمنى ويسرى عندما تسيرين، مثل ذيل السنجاب الكثيف الشعر. كان شعرك الطويل يغريني باستمرار كي أشده. أما الآن، فقد قصصته، أليس كذلك؟ لقد أحسست بمدى قصره... وتجعده. لم يكن كذلك من قبل. أرجو ألا تكوني قد غيرت لونه أيضاً، لأني كنت وما أزال أحب لونه الكستنائي البراق واللامع.

لم يعد باستطاعة جولييت التحمل أكثر، فقاطعته وهي ترتجف: «لا أدري ما سبب وجودك هنا، اذهب عني!».

ما كادت جولييت تنهي كلامها، حتى قال لها بصوت متهدج: «هل تعلمين أن أبي قد توفي؟».

قطعت الصدمة أنفاسها. ومرت أكثر من دقيقة قبل أن تتكلم: «لا تقل لي...» قالت هذه الكلمة بحزن وعدم تقبل لأنها كانت تحب والده، أكثر مما كانت تحب والدها.

ـ توفي منذ شهر.

وبدا من نبرة صوته أنه لا يصدق أنها لم تعرف بموته.

ـ نشرنا الخبر في صحيفة التايمز. ألم تقرأيها؟

ـ لا، نادراً ما أطالع الصحف اليومية.. فليس لدي الوقت لذلك.

من المؤكد أن أمها لم يصلها الخبر وإلا اخبرتها بالأمر. فهي كانت تحب الرجل العجوز أيضاً وتعرف متانة الصلة التي كانت بين جولييت وبينه. أخذت نفساً عميقاً وقالت بهدوء: «أنا آسفة لوفاته... لاشك أنك تفتقده».

ضحك بغضب: «أنا أفتقده أكثر مما فعلت في السنوات الثمانية الماضية، فهو لم يكلمني منذ الليلة التي رحلت فيها».

أفقدتها هذه المعلومات القدرة على الكلام، وقبل أن تتمكن من إخباره عن مدى أسفها لسماع ذلك تحرك فجأة وأضاء المصباح المجاور للسرير. أعماها بريق النور الفجائي للحظة وجيزة ثم تركزت عيناها عليه لتراه بوضوح للمرة الأولى. بدا وكأنه أصبح أكثر طولاً، رجلاً نحيلاً ومتوثباً وخطراً، كان وجهه مألوفاً جداً لذا استغربت عدم تمكنها من التعرف إليه حتى في الظلام، فهي لم تنسَ قطُّ هذه القسمات المنحوتة وهاتين العينين الباردتين والفم العريض.

كان يتفحصها أيضاً، من رأسها حتى قدميها، ولكن بأسلوب وقح،

فسارعت إلى عقد أزرار سترة البيجاما العليا فيما كان يحدق إليها ويلوي طرف فمه إلى الأعلى بابتسامة ساخرة.

أثارت هذه الابتسامة غضبها ثانية، وانفجرت به: «لا تحاول أن تجعلني أشعر بالذنب فيما يتعلق بوالدك. هل نسيت ما الذي فعلته بي تلك الليلة؟ فهل كنت أستطيع أن أبقى بعد ذلك؟».

تصلب وجهه وقال: «لقد جعلتني أعتقد، أن هذا ما تريدينه. ألا تذكرين؟».

ازداد احمرار وجهها: «كنت مراهقة في السابعة عشرة من العمر! لم أكن أدرك ماذا أفعل!».

سلط عينيه الرماديتين عليها: «بل أعتقد انك كنت تدركين. لقد أردت أن تصبحي فرداً من أفراد عائلتنا، وكنت ترغبين أن تصبحي سيدة مزارع شانتري. وأصبحت محط انظارك لعدة أشهر ثم أخذت تلاحقينني في كل مكان أذهب إليه، وكيفما استدرت كنت أشاهدك حولي، كنت مثل العلقة. يا إلهي، لقد طاردتني دون هوادة».

أرادت أن تجهش بالبكاء وفي الوقت ذاته كانت غاضبة غضباً جعلها ترغب في قتله، لأن ما كان يقوله صحيح ومشبع بالأكاذيب في آن. نعم لقد لاحقته في كل مكان، وعلقت به مثل العلقة ولكن لم يكن هدفها أن تصبح سيدة مزارع عائلته. لم يكن ذلك في حسبانها. وهي ليست من النوع الطموح، ولم تكن من الذين يتسلقون على أكتاف الآخرين، ولم تكن صائدة ثروات. كانت حينها تتأرجح بين الطفولة والبلوغ، نصفها طفل والنصف الآخر امرأة، واقعة في الحب حتى أذنيها وغير قادرة على إخفاء مشاعرها، كانت مهووسة ومفتونة وغيورة وشغوفة به، ولم تفكر في أي مستقبل معه، ولم تدرك إلى أين ستؤدي بها ملاحقتها له.

تمتمت وهي تحملق به: «لم أكن أسعى وراء مزارع شانتري، هذا الجزء من كلامك غير صحيح، ولا أرضى أن تتهمني بذلك! فأنت الذي أسأت

الفهم... فقد كنت مراهقة سخيفة مهووسة بأول شخص تحبه... لم يكن ذلك حقيقياً».

برقت عيناه ببريق قاتل: «ليس حقيقياً؟ أول شخص تحبه؟ الإفتتان الأول».

نمّت نبرة صوته عن الكره: «ومن أجل ذلك حطمت حياتي كلها؟».

شحب لونها وشعرت بضيق في تنفسها، «أنا لم...».

قاطعها بقسوة: «منذ عدة أيام ظهرت وصية أبي الأخيرة، كان قد أقفل عليها في أحد ادراج مكتبته، ولم يعلم أحد بوجودها. لم يكن لدى أي من المحامين نسخة عنها. وكانوا يعتقدون أن آخر وصية له هي التي أوصى لي بها بكل الممتلكات ولكن عندما كان المسؤولون عن حصر الإرث وفرزه يراجعون أوراقه، عثروا على وصيته الأخيرة».

تردد لحظة في الكلام وهو يحدق إليها بمرارة: «لم يترك لي شانتري في وصيته».

شحب وجه جولييت بصورة كبيرة وعبرت عيناها عن هول الوقعة.

ـ هل فعل ذلك حقاً؟ ولكن... من سيرث بعد ذلك.

كان سايمون ابنه الوحيد ولكنها كانت تعلم أن لدى والده شقيقاً يقيم إلى الشمال في مكان ما في اسكتلاندا وعنده عدة أبناء. هل ترك روبرت جيرار أملاكه إلى أحد أبناء شقيقه؟ هذا تصرف قاسٍ وغير عادل ولم يكن ذلك من خصاله، ولم تكن لتصدق أنه قد يتصرف على هذه الصورة. لا عجب أن سايمون غاضب جداً ولديه كل الحق في عدم تقبل الأمر.

كان يحدق إليها بعينين ثابتتين وشرايينه محتقنة من شدة الغضب وأسنانه تصطك ببعضها بعضاً. وفجأة قال لها بنبرة جليدية: «لقد أوصى بكل الأملاك والأموال والمزارع... كل شيء، لأولادنا».

كانت الصدمة شديدة بحيث شعرت أن الدم سينفر من عروقها. ترنحت وارتجفت وكأنها ورقة شجرة في مهب الرياح وللحظة كاد يغمى

عليها. خطا خطوتين سريعتين للإمساك بها قبل أن تقع ثم وضعها على السرير ولكنها قاومت يديه وهي ترتجف وتبعده عنها، وجلست على طرف السرير وقد أفقدتها ملامسته، أعصابها.

ـ أنت لا تعني ما قلت للتو.

أجابها وهو يزم شفتيه بشدة: «بلى، أعني ذلك».

ـ لا يمكن أن يكون فعل ذلك!.

ـ لقد فعل.

ـ لا يمكن أن تكون هذه الوصية قانونية!

انفجر بها قائلاً: «يبدو أنها قانونية تماماً. كان يعرف ماذا يفعل... لقد كتب وصايا أخرى، ولكنه لم يخبر محاميه بهذه الوصية. وقد اتبع القواعد ذاتها التي استخدمت في الوصايا الأخرى وكل النصوص التي جاءت فيها صحيحة. لقد ترك كل شيء لصالح أولاد...».

قاطعته بصوت متهدج: «اوه! تعني لصالح اولادك. عرفتُ الآن السبب الذي دعاك للبحث عني، أنت تريد الزواج ثانية وإنجاب أولاد، ولهذا تحتاج إلى الطلاق».

شعرت بألم غريب عندما وصلت إلى هذه النقطة، لأن زواجهما القصير الغريب تسبب بكل هذا البؤس، ونهاية هذا الزواج ستكون غريبة مثل بدايته. أجبرت نفسها على ابتسامة عبرّت عن حيرتها.

ـ لم أعتقد بعد كل هذه السنوات، أنك بحاجة إلى موافقتي. فالمؤكد أنه سيكون طلاقاً دون أية إشكالات. أليس كذلك؟.

رد عليها بقسوة: «لا طلاق!».

انكمشت على نفسها من النظرة التي بانت في عينيه. تنامى غضبه وهو يستمع إلى ما تقوله: «لم تتركي لي المجال لأنهي كلامي. أقفلي فمك واستمعي. يجب أن يكون الأولاد، أولادنا. منّي ومنك».

فغرت فاها: «ماذا؟».

ـ لقد سمعتني. كان واضحاً جداً، أولادنا فقط هم الذين يدخلون في الحسبان. فإذا تطلقنا أو لم ننجب الأطفال بعد سنتين من وفاة والدي، يرث الأملاك أكبر أبناء عمي، توني».

همست وهي مأخوذة بما تسمع: «سايمون. أنا أسفة جداً. كيف استطاع أن يفعل بك هذا؟ فليس من شيمه أن يكون قاسياً».

رد عليها بقسوة: «لقد هربتِ واعتبرني مسؤولاً عن ذلك ولم يغفر لي قط. أنا ابنه، ابنه الوحيد ولكني لم أكن مهماً عنده مثلك أنت.. كنت دائماً مدللته، وهو أدخلك في حياته منذ لحظة ولادتك».

ما يقوله صحيح ولا يمكنها إنكار ذلك، فقد كان هنالك محبة قوية بينها وبين روبرت جيرار. كان من هذا النوع من الرجال الذين يحبون النساء ويتمتعون بصحبتهنّ أكثر من تمتعهم بصحبة أقرانهم الرجال مع أنه كان ذو رجولة واضحة، كبير الحجم وعريض المنكبين وقوي. رجل ريفي بكل معنى الكلمة، يتجول دائماً على أراضيه، أحياناً يعمل وأحياناً أخرى يمضي وقته في ركوب الخيل وصيد الأسماك وصيد الأرانب والطيور التي تهاجم محاصيله.

كان ينسجم جيداً مع عمال المزرعة لأنه رجل طيب القلب كريم وعفوي، على الرغم من مزاجه الحاد. ولكنه لم يكن ليحمل ضغينة على الإطلاق. ابتسمت قليلاً عندما وصلت بذكرياتها عنه إلى هذه النقطة، كان يثور ويزبد ويغضب ومن ثم يحاول إصلاح ذات البين مع ضحية غضبه وكان الأشخاص الذين يعرفونه جيداً يحبونه كثيراً. ومع ذلك لم ينسَ قط أن عائلته كانت تملك هذه الأرض وتزرعها منذ مئات السنين أو أن البيت الذي يقطنه أنشيء على موقع بدل قلعة قديمة دمرت خلال حروب الوردتين. أُنشيء البيت الحالي سنة ١٧٠٠ بعد أن أتت النار على مبنى عائلة تيدور. وقد أخبر روبرت جيرار جولييت عن تاريخ هذه المنطقة العريق.

كانت زوجته هي التي أخذت تهتم بجولييت الصغيرة أولاً، والحق

يقال، أن السيدة جيرار هي التي اقترحت اسم جولييت وتحمست أمها لهذا الاسم. فالسيدة جيرار تمنت طويلاً أن تنجب ولداً آخر، وبالأحرى بنتاً، ولكن بعد ولادة ابنها الأول، سايمون، حصل لها مضاعفات خضعت على أثرها لعملية جراحية أصبحت من بعدها عاقراً. كان والد جولييت هو المسؤول عن تربية المواشي في مزارع شانتري وعملت زوجته بدوام جزئي لدى السيدة جيرار في المنزل وكانت تأخذ معها طفلتها «جولييت» بعد ولادتها.

عندما ولدت جولييت كان عمر سايمون تسعة أعوام وعندئذٍ التحق بمدرسة داخلية بعيداً عن المنزل. شعرت أمه بالوحدة، ووجود طفل آخر في البيت سهّل عليها تحمل غياب ابنها. كانت امرأة صغيرة الحجم ورقيقة، تملك وجهاً ناعماً، وتعاني من مرض خبيث قضى عليها بعد عشر سنوات، وكان سايمون حينئذٍ قد التحق بالجامعة، فأصبح روبرت جيرار يعيش وحيداً في المنزل الجميل القديم المشيد بين أشجار السنديان الفارعة الطول. وفي ذلك الحين أخذت محبته العميقة لجولييت بالظهور فعلياً، وتعلق بها. في البداية لأن زوجته كانت تحبها وبعد ذلك لأنه احبها فعلاً.

ـ لقد أحببته أيضاً. لقد كان لي أباً أكثر من والدي الحقيقي! أبوك كان رجلاً رائعاً، ودوداً وكريماً ومتفهماً. ومن المؤسف أنك لم تأخذ الكثير من خصاله!.

علق على مديحها لوالده بسخرية: «فعلاً! لقد كان متفهماً وكريماً جداً عندما حرمني من وصيته».

لم يكن أمامها إلا التعاطف معه.

وافقته الرأي: «نعم، كان يجب ألا يفعل ذلك».

واستمرت تنظر إليه وتراقبه من طرف عينها حائرة، مرتبكة. فمن جهة، هي تكره سايمون جيرار ولم تكن تتخيل قط أنها ستشعر بأي نوع من التعاطف معه ثانية. ومن جهة أخرى، بدا أنه أصيب بصدمة قاسية عندما

اكتشف أن والده قرر وصية جديدة. ولم يكن هناك شك قط في أن سايمون سيرث مزارع شانتري، ولهذا السبب انتقل من الجامعة التي حصل منها على إجازة في العلوم إلى كلية علوم زراعية ليتخصص في إدارة المزارع والبستنة. لقد قضى سنوات في التدرب على إدارة شانتري، ولكن أباه اختار أن يحرمه منها. وهذا غير عادل بصورة فظيعة. قطبت جبينها وهي تراقب وجهه القاسي والعابس.

ـ ولكن ألا تستطيع الاعتراض على الوصية أو الطعن بها؟.

ـ على أي أساس؟ على أساس أن والدي قد أصابه الخرف عندما كتب هذه الوصية؟ هل تعتقدين حقاً أنني سأقوم بذلك؟ لقد أخبرتك أن الوصية كاملة من الناحية القانونية.

ـ أليس في النص ثغرات؟

ـ أبداً. إذا لم ننجب اولاداً سيرث ابن عمي.

ركز نظره عليها بعينين تشعان مثل الفولاذ.

ـ وسيكون ذلك كارثة لأن طوني سيبيعها على الأرجح. فهو ليس مزارعاً، ولا يرغب أن يكون مزارعاً... إنه يحب الحياة الرغدة وإنفاق المال والإقامة في لندن. وحالما يستطيع تصفية الأملاك سيخلد إلى الراحة ويتمتع بإنفاق المال حتى القرش الأخير.

صدقت كلامه، لأن طوني كان دائماً من المبذرين، وكان متهوراً وفوضوياً دللته أمه وربته على حب الذات، وروبرت جيرار يعرف تماماً أي نوع من الرجال هو ابن أخيه طوني. فلماذا بحق السماء يوصي بـ شانتري له، بدلاً من أن يوصي بها إلى سايمون؟.

قالت بصوت مرتفع والحيرة تملأ عينيها: «ذلك ليس منطقياً، لماذا فعل ذلك؟ كان يتحدث دائماً وكأن لا شيء في الدنيا سيسعده أكثر من أن تؤول المزارع إليك يوماً ما وتصبح مسؤولاً عنها».

تمتم سايمون وكأنه يوبخها:

ـ تغير والدي منذ رحيلك، ملأته المرارة وكان يلومني على كل ما حدث. كان يشعر بالوحدة، ومع ذلك لم يسمح لي بالبقاء في المنزل ولم يعد مرحباً بي في مزارع شانتري بعد ذلك.

اهتزت جولييت لسماع ذلك: «انت رحلت، أيضاً؟ ولكن ربما لهذا...».

ـ لم أرحل، بل طردت من المنزل وقد أقمت مع آل ماكينتاير في الكوخ الوردي لبضعة أشهر، وعندما أدركت أنه لن يسمح لي أبداً بالعودة إلى المنزل انتقلت إلى أحد اكواخ المزرعة التي خلت بعد موت العجوز بن سميث.

ـ أوه، مات بن أيضاً، أنا آسفة.

قال سايمون بنبرة لطيفة ملؤها الأسى: «كان عمره تسعين عاماً».

عرف بن منذ ولادته، وجال معه أنحاء الريف وتعلم منه العادات الريفية. واسترجعت فجأة أنه في إحدى الليالي اصطحبهما بن للاستلقاء بين الدغل والأعشاب فوق أجمة بانتظار خروج عائلة من المزارعين إلى الصيد. كانت تجربة رائعة، وكادت تسترجع رائحة الأرض الرطبة والأعشاب التي تكسرت بعد أن استلقوا عليها.

ـ هل توقفت أيضاً عن العمل في المزارع بعد رحيلك عن المنزل؟

ـ لا، لقد استمريت بالعمل في المزارع، وبصراحة كنت أدير هذا المكان في السنوات الأخيرة الماضية، لأن صحة والدي أخذت بالتدهور وتخلى لي تقريباً عن إدارة الأملاك.

نظرت إليه بحيرة: «إذاً، عاود التكلم معك ثانية؟»

قال لها بلطف والمرارة ظاهرة على كل تعابير وجهه:

ـ لا، لقد تواصلنا بالكتابة. أنا ابعث له الملاحظات والرسائل والمذكرات الطويلة، وهو يرد بالمثل. كان الأمر غريباً.

ـ ألا يبدو من ذلك أنه كان مريضاً؟ أعني عقلياً. هذه التصرفات لا تنطبق مع طباعه فلعل المرض شوّش عقله، وغيّر شخصيته. ألا تستطيع على

أساس ذلك أن تطعن بالوصية؟

ـ أنا لن أشوّه سمعة والدي في المحاكم!

صرخ سايمون بذلك في وجهها مما جعلها تتوتر وتبتعد عنه مسافة خطوة. لقد كان دائماً شخصاً مهيمناً، حتى عندما كان ولداً، ولكن منذ رأته آخر مرة تحول إلى رجل يجب الحذر منه، وهي لم تكن لترغب في مواجهته أو معارضته.

قالت متأتئة: «أنا لم اقترح..».

ـ هذا ما كان يتضمنه اقتراحك، وأنا لا أقبل ذلك، أفضل أن تؤول التركة وشانتري إلى طوني على أن أشوه سمعة والدي بهذه الطريقة.

أشعرها غضبه بالارتباك، ومع ذلك أثّر موقفه فيها، فذلك يدل على المحبة التي يكنها لوالده وهي محبة نادراً ما عبّر عنها.

ران صمت قصير ثم تابع سايمون كلامه:

ـ أعتقد أنه كان مريضاً عقلياً في آخر أيامه. فلم يكن يخرج من المنزل بتاتاً ولا يقابل احداً وكان يسترجع ذكريات الماضي طوال الوقت. كان الدكتور مانرز قلقاً بشأن صحته العقلية. لا، لم يكن يعتقد أنه سيصبح مجنوناً، ولكنه كان يعرف أن أبي مصاب بكآبة شديدة وقد حاول باستمرار إقناعه بالتكلم معي، ولكن أبي لم يأخذ بكلامه.

ألقى سايمون نظرة جانبية عليها وهو يخفض حاجبيه:

ـ كان في كل مكان حوله صور لكِ ولوالدتي، ولم تكن هنالك صورة واحدة لي.

أهو يشعر بالغيرة منها؟ تساءلت فجأة، واتسعت عيناها الزرقاوان من الصدمة. هل كان يغار دائماً من المحبة المتبادلة بينها وبين والديه؟ فلقد أرسل إلى مدرسة داخلية، وبشكل ما حلت مكانه في الأسرة. هل ينظر إلي هكذا؟

عبس سايمون: «كان يدعي أني لم أعد موجوداً، ولم يسمح للدكتور

مانرز بالتحدث عني. حتى التعليمات التي كان يرسلها لي بشأن المزرعة، كانت رسمية، وكأني غريب ومجرد موظف. لم يبدأ رسائله قط بكلمة «عزيزي سايمون» بل كان يبدأ بـ «إلى مدير المزرعة».

قالت وهي تضع يدها على ذراعه لا شعورياً: «اوه سايمون. أنا آسفة».

تصلبت عضلاته وحوّل نظراته إلى الأصابع الرقيقه الشاحبة التي لمست بشرته مما جعل الاحمرار يعلو وجنتيها، فسحبت يدها بسرعة وسألته على عجلة:

ـ ما هو المرض الذي قضى عليه؟

نظر سايمون إليها بغرابة:

ـ لم يكن الأطباء متأكدين في أول الأمر. جاء أحدهم بنظرية مجنونة وهي أنه يحاول أن يصاب بالمرض نفسه الذي قتل أمي.. أعتقد أنهم افترضوا أن مرضه سايكوماتي أي الأمراض البدنية التي يتسبب بها التوتر النفسي والتشنج العصبي ولكن ظهر أنه مصاب في كبده. وكان من المفترض أن يموت بهذا المرض ولكن الذي قضى عليه في النهاية كان سكتة قلبية، وحدث ذلك فجأة.

توقف عن الكلام برهة وتأمل لبضع ثوان ثم أضاف: «لم أستطع توديعه».

ـ ربما لم يكن في نيته أن ينفّذ هذه الوصية، وربما كان سيغيّرها.

نظر سايمون إليها بشراسة.

ـ لا يهم ما الذي كان ينويه، فالنتائج القانونية هي المهمة الآن. وهي واضحة جداً. أليس كذلك؟

همست بحزن وهي تنظر إلى عينيه الرماديتين اللتين يملؤهما الغضب.

ـ أنا آسفة جداً يا سايمون. أنا أدرك مدى الألم الذي ستشعر به لخسارتك شانتري.

قال وهو يصر على أسنانه ويثبت نظره عليها: «لا أنوي خسارتها. فأنت ستنجبين لي طفلاً كي يرث كل الأملاك».

لم تستوعب ما قاله للحظة بدت طويلة. حدقت إليه كالبلهاء، تحاول استيعاب ما يعنى، ثم أدركت معنى كلامه فاعتلى الاحمرار الشديد وجهها ثم شحبت، وكانت ترتجف بشدة، لأن الفكرة بذاتها، أصابتها بالدوران. وارتاعت لفكرة أن تسمح له بلمسها ثانية، وأن يفرض جسده عليها مثلما فعل ذات مرة في السابق، في ليلة عرسهما.

«لا!». همست بالكلمة الوحيدة التي حملتها كل مشاعر الصدمة والامتعاض والاشمئزاز.

لم يكن بمستطاع سايمون ألا يدرك ذلك من نبرة صوتها، ومن تعابير وجهها، ولكنه راقبها دون انفعال، فهو رجل عركته الأيام وقسته السنوات المريرة بسبب الانفصال عن والده. هذا الرجل لم يعد الرجل الذي عرفته طوال حياتها، ولكن هي أيضاً لم تعد تلك المراهقة ذات العيون الزائغة التي كان يعرفها. لقد تحولت إلى امرأة في ليلة وضحاها وغيرّتها السنوات التي تلت بصورة جذرية. كلاهما مر بظروف جهنمية منذ التقيا للمرة الأخيرة، وكانت تعاني من الندم وهي تنظر إليه، لأنها عرفت أنها السبب الذي جعل العلاقة بين سايمون وأبيه تسوء، رغم أنه لم يكن في نيتها التفريق بينهما.

قالت وكأنها تتوسل إليه:

ـ هل أنت جاد فيما تقول؟

فهي لا تصدق أنه يعني ما يقول. لا أحد يمكنه أن يكون بهذه القسوة والبرودة.

زم شفتيه ثم فتح فمه بكلمة واحدة: «نعم».

ـ لا.

أنكرت عليه ذلك والهلع يستولي عليها.

قال لها ببرودة: «أنا لا أطلب منك القيام بذلك دون مقابل، سوف

تحصلين على حصة كبيرة من التركة حالما تنجبين طفلاً وتستقر الأمور. وأنا لا أجد هذا المطلب غير معقول. أنت السبب في كل هذا الوضع... وأنت من عليه أن يصلح الأمر، والطريقة واضحة».

قالت بنبرة هستيرية: «أنا لا أصدق ما يجري. أنا لا أستطيع سماع المزيد».

وقفزت باتجاه الباب ثانية، ولكن سايمون أمسك بذراعها مما جعلها تصرخ: «لا تفعل! لا تلمسني!».

عوضاً عن السماح لها بالإفلات، انحنى باتجاهها وقال لها برقة:

ـ سيكون الأمر هذه المرة مختلفاً... أنت لست مراهقة عذراء الآن، بل امرأة ناضجة، وأظنك عاشرت رجالاً آخرين منذ هروبك.

شعرت أن الاحمرار اعتلى وجهها ثانية وأغمضت عينيها لئلا تفصح عن المشاعر التي تعبرّ عنها.

ـ لا علاقة لذلك بهذا الأمر، فأنا لن أستطيع إقامة علاقة معك دون حب وببرودة أعصاب. لا أستطيع ذلك.

ران صمت قريب ونظرت إليه من خلال رموشها، وشعرت بالخوف وهي تراه يبتسم بمكر.

ـ إذاً فلنقم بذلك بحرارة.

رأت وميضاً في عينيه الرماديتين أخذ يعذبها. كانت نظراته تجول على كامل جسمها وتتفحصه... وارتبكت وهي تشعر بالحرارة تسري في كيانها وتشعر بالنبض يخفق في حلقها. لعلها تكرهه ولكنه ما يزال يثير مشاعرها بطريقة ما.

ـ لا.

رفضت الفكرة مجدداً بصوت مرتفع وهي تشعر أنها على وشك الإغماء في أي لحظة.

ـ أرجوك. دعني وشأني. ألا تستطيع ذلك؟ أنا آسفة ولكن ما تطلبه

مني مستحيل. أنا لا أستطيع ذلك!

تمعن سايمون في وجهها عاقد الحاجبين ثم هز كتفيه.

ـ حسناً، لقد تجاوزت الساعة منتصف الليل وكلانا متعب بعد قيادة السيارة لمسافة طويلة من لندن، ولهذا سنترك بحث الأمر الآن على أن نستأنف الحديث في الصباح.

أفلت ذراعها واتجه نحو الباب وراقبته جولييت بيأس وحيرة.

ـ ماذا تعني... نستأنف في الصباح؟ لا يمكنك المبيت هنا، كما تعرف. فأنا لم اسمح لك.

ـ اطردني إذاً.

قال لها ذلك بتعالٍ لأنه كان يعرف أنها غير قادرة على فعل ذلك، ثم خرج من الغرفة.. سمعت صوت خطواته وهو يتجه إلى غرفة النوم الرئيسية.

وقفت في مكانها للحظة غير قادرة على حزم أمرها، وتساءلت عما يجب أن تفعل. ثم قررت، السلامة أولاً، فأقفلت باب غرفة النوم عليها مصدرة أكثر ما يمكن من الأصوات كي يسمع ما تفعل.

وجاءها الرد بنبرة تهكمية:

ـ تصبحين على خير يا جولييت.

ثم سمعت أصوات تحركاته الخافتة في الغرفة، وفي الحمام وصرير رفاصات السرير ثم صوت اطفاء النور.

استلقت جولييت على سريرها تحدق إلى السقف لمدة نصف ساعة مرتبكة وحائرة، ثم تغلّب النوم عليها أخيراً ولكن أحلامها كانت فوضى عارمة.

***

٣ ـ تهديد!

استيقظت جولييت مذعورة ولم تتذكر، للحظة، ما حدث في الليلة الماضية. تابعت الاستلقاء وهي تنظر إلى السقف وعيناها خاويتان من أي تعبير ولاحظت تلاعب نور النهار الباهت عليه وسمعت عويل الرياح في الخارج، وبدأت تتساءل عن السبب الذي جعلها تشعر بالتعب والإعياء والاكتئاب. شعرت بصداع في رأسها وعدم الرغبة في النهوض ومغادرة السرير. هل أصيبت بنزلة برد؟ وهل أثر الثلج في صحتها؟

ثم سمعت صوتاً خافتاً في الكوخ وتذكرت في لحظة خاطفة كل ما حدث لها. فغرت فاها وجلست في مكانها وهي تحدق إلى باب غرفة نومها.

ما يزال هنا، في الكوخ، وراء هذا الباب يتجول ويصفّر بنعومة، «سايمون». ارتسم اسمه على شفتيها الشاحبتين. «زوجها سايمون».

لقد أقفلت عقلها على ذكرى زواجها القصير منذ سنوات طويلة، وهذا ما جعلها تجد حقيقة زواجها التي تواجهها الآن أمراً لا يصدق، تماماً مثلما وجدته يوم وقفت إلى جانب سايمون لتعقد قرانها عليه في مكتب قاضي الزواج حيث خضعت للمراسم القانونية التي جعلت منهما زوجاً وزوجة. نظرت إليه من طرف عينها بعدم تصديق وانبهار. ربما حاولت عقلياً كبت هذه الذكرى ولكنها اكتشفت أنها لم تنسَ شيئاً. ويبدو أن كل مجريات ذلك اليوم قد حفرت بالنار في عقلها الباطني.

كانت يومذاك ترتدي أفضل فساتينها. كان ثوباً أزرق بسيطاً يناسب

تلميذة في أيام العطل، لا عروساً في يوم زواجها. لم يكن أنيقاً أو مميزاً. لأن والدها لم يكن يؤمن بإنفاق المال الذي يجنى بعرق الجبين على ما يعتقد أنه غير ضروري، والثياب الجميلة لابنته الوحيدة تقع في خانة «غير الضروري».

حضر والدها عقد القران للتأكد فقط من اتمامه. كان حضوراً عدائياً وكالحاً، ارتدى بذلته الوحيدة المحيكة من نسيج صوفي سميك وهي بذلة امتلكها لسنوات وسنوات وكان يرتديها في كل المناسبات الرسمية بما فيها الجنازات، وفي هذه كان يضيف إلى بذلته رباطاً اسود يضعه حول كم السترة. توقعت أن يحضر معه بندقيته ولكن احترام جاك نيوكوم الكبير للتقاليد جعله يمتنع عن ذلك ويتركها في البيت، ولكن التهديد باستعمالها كان يضطرم في عينيه العابستين كلما نظر إليها أو إلى سايمون.

لقد ضبطهما معاً بعد حفلة مهرجان الحصاد الراقصة، وهي بين ذراعيه تحت أشجار التفاح المثقلة بالفاكهة في البستان الذي يقع خلف شانتري، وكان حينها يتمنطق بندقية، سددها إلى وجه سايمون ودلت تعابير عينيه أنه سيقتله، فصرخت جولييت مقتنعةً بأنه ينوي اطلاق النار عليه.

ـ لا، يا أبي.

نظر إليها ورمقها باشمئزاز وكأنه ينتقدها بصمت. كان الاحتقار ظاهراً على وجهه ثم بصق عليها، وأطلق عليها أقذع الشتائم وقال لها إنها فتاة ساقطة فوجمت وأصبح لون وجنتيها أرجوانياً من شدة الخجل، وهذا ما دفع سايمون إلى النهوض على قدميه، وقسمات وجهه تعبرّ عن غضبه الشديد.

ـ لا تطلق هذه النعوت عليها ولا تكلمها بهذه الصورة!

رد عليه جاك نيوكوم باشمئزاز: «وهل هي غير ذلك؟».

اعترض سايمون غاضباً: «لم يحدث أي شيء، يا رجل!»

رد عليه والدها بضحكة استهزاء.

ـ وفّر على نفسك الكذب.

ازداد احمرار وجه سايمون:

ـ اسمع، يا جاك...

ولم يتركه الرجل العجوز ينهي كلامه وقاطعه موبخاً.

ـ أنا السيد نيوكوم بالنسبة لك منذ هذه الليلة؟

ثم استمر بتأنيبه: «لم أتخيل قط أنك قد تفعل ذلك بي يا سايمون. ليس إذا كنت ابن أبيك، أما هي فلا أستطيع القول إني فوجئت بتصرفاتها، فهي كأمها.. وكنت اعرف أنها ستحذو حذوها عاقلاً أو آجلاً، ولكني كنت آمل أن أزوجها سريعاً. وأنا لن أقبل أن يلحق أحد بي العار أمام كل سكان المقاطعة مرة أخرى، يا سيد سايمون. لقد اكتفيت من الفضيحة والعار اللذين تسببت بهما زوجتي عندما هربت مني ولن أصبح مضحكة للجميع مرة أخرى».

كان يسدّد بندقيته إلى سايمون واصبعه على الزناد، وكأنه على وشك الضغط عليه. كانت جولييت مرتعبة جداً وهذا ما دفعها ثانية إلى الصراخ، الذي وصل إلى مسمعي روبرت جيرار، فخرج من المنزل وهرع إلى ممرات البستان المغطاة بالعشب القاسي.

ـ ما هذه الضجة كلها بحق السماء؟ ما الذي يحدث؟

قال ذلك وهو يحدق وقد أذهله المنظر الذي رآه تحت الأشجار؛ مدير المزرعة الكبير الحجم والفتاة المرتعشة والباكية وأخيراً ابنه.

بدأ سايمون وجاك نيوكوم التكلم في آن واحد فقاطعهما روبرت جيرار بعد فقدان صبره: «لا أستطيع أن انصت لكم جميعاً دفعه واحدة. أنت يا جاك اخبرني عما يحدث، وبالله عليك أخفض هذه البندقية. أهي محشوة؟».

قرأ الجواب في وجه العجوز الآخر العابس فقال له بتجهم: «ما خطبك يا رجل؟ أنت أدرى الناس ما معنى تسديد بندقية محشوة إلى شخص ما».

كان الرجلان العجوزان يعرفان بعضهما بعضاً منذ نعومة أظافرهما. إذ عمل أبوها في مزارع شانتري منذ ترك المدرسة. وكان مديراً ممتازاً، ويعرف

كل ما يتعلق بعمله، وهذا العمل تناسب مع طباعه، إذ يستيقظ قبل الفجر ويذهب إلى المراعي والحقول كل يوم ثم يعود بعد بضع ساعات، وينام في الليل، ولكنه كان يخرج ثانيةً دائماً كي يلاحق الذين يصطادون الحجل أو الأرانب دون إذن أو رخصة، ويبدو أن أسلوب الحياة المليء بالحركة كان يناسبه، فقد كان رجلاً قوياً وشديداً وعصبياً ورغم بلوغه الخمسين من عمره كان يستطيع السير مسافة عدة كيلومترات دون أن يشعر بالتعب.

بدأ يتذمر من دون أن يخفض بندقيته: «لقد أمسكت بهما للتو. هل كنت تعرف ماذا يجري بينهما؟ لقد اعترتني الشكوك مؤخراً، ولا بد أنك شككت في الأمر. لماذا لم تطلب منه أن يتركها وشأنها؟».

ـ ما هذا الذي تتكلم عنه؟

سأله روبرت ذلك وهو لا يصدق ما يجري، أما جولييت فأغمضت عينيها والدموع تسيل فوق خديها.

تحدث والدها بمرارة عن الموقف كما يراه، ثم استدار روبرت جيرار ناحية سايمون غاضباً وامطره بالأسئلة. ورد عليه سايمون صائحاً في وجهه. وعندئذ انخرط الرجال الثلاثة في الصياح والصراخ على بعضهم البعض فيما بقيت هي واقفة في مكانها، ترتجف من الخوف.

لم تسمع جولييت قط أباها يتكلم مع روبرت جيرار بهذا الأسلوب من قبل. فلطالما كان أبوها يحترم رب عمله. وكانت تستطيع السماح لنفسها بأن تقول إن روبرت جيرار من أقرب الأصدقاء إلى أبيها. ولهذا السبب وافق على السماح لجولييت بتمضية الكثير من الوقت في مزرعة شانتري، خاصة بعد رحيل أمها.

كانت جولييت قد بلغت الحادية عشرة من عمرها عندما هربت أمها بعدما أمضت عطلة مع خالتها في جزيرة صقلية. كانت خالتها دورا تحلم دائماً بزيارة صقلية ولكنها كانت تخاف السفر بمفردها، لأن رأسها كان ممتلئاً بقصص عن العصابات والمافيا والخطف، ولهذا دعت شقيقتها شيرلي

نيوكوم لمرافقتها في رحلة سياحية لا تتعدى الأسبوعين، كانت أول عطلة حقيقية لشيرلي منذ زواجها. إذ لم يكن جاك نيوكوم يؤمن بقضاء العطل في أمكنة سياحية، خاصة خارج البلاد. ولم يكن يسمح لزوجته بالذهاب ولكنها للمرة الأولى استجمعت شجاعتها وأصرت على الذهاب. وكانت هذه الرحلة هي التي مزقت حياتها الزوجية وفرقتها عن عائلتها.

عندما لم ترجع أمها شعرت جوليا بأن أمها خانتها وتخلت عنها. ولكن عندما كبرت وتوسعت مداركها استطاعت أن تفهم السبب الذي دفعها إلى الهرب من زوجها. وعندما بحثا الأمر معاً في السنوات اللاحقة قالت لها أمها بصراحة: «بعدما دفنت اثنتي عشرة سنة في هذا المكان مع والدك، شعرت أني ولدت من جديد. كنت سعيدة جداً يا حبيبتي. ولم اكن استطيع تحمل العودة إلى جاك. عانيت كثيراً بسبب هجري لك، وأعرف أنني جرحتك في مشاعرك، ولكنني كنت أرغب كثيراً في ضمك إليّ، وكنت آمل أن استرجعك حالما يتم الطلاق، خاصة وهو لا يأوي إلى البيت إلا نادراً ولا يظهر بتاتاً أي اهتمام بك. لم أعتقد أنهم سيسمحون له بالاحتفاظ بك وكان المحامي الذي وكلته واثقاً جداً بأنني سأفوز بحضانتك. ولكننا لم نأخذ بالحسبان تدخل السيدة جيرار التي استحوذت عليك بشكل كامل».

أجابتها جولييت وهي تشعر بالأسى:

ـ أعتقد أن والدي احتفظ بحضانتي ليغيظك وينتقم منك فقط.

ـ لا شك عندي بذلك! لقد كان دائماً رجلاً صعباً.

قررت المحكمة أن تمنح جاك نيوكوم حق حضانة ابنته جولييت واعطت أمها الحق في رؤيتها مرة في الأسبوع على الأقل وحسبما ترغب.

ـ حالما تعرفت إلى جورجيو، طلبت من أبيك أن نتبادل الزيارات أي أن أذهب إلى ديفون لزيارتك مرة في اسبوع ويرسلك لي مرة في الأسبوع الذي يلي وهكذا دواليك ولكن والدك لم يرضَ بالتعاون في هذا الشأن. ولم يكن يسمح لك بالخروج معنا عندما كنا نأتي لرؤيتك، بل كان يجعلنا نجلس في

الكوخ بحضوره. وكان طوال الوقت يحدق بنا من وجه إلى آخر مثيراً الرعب في قلب جورجيو المسكين.

ضحكت جولييت، فهي تتذكر هذه الزيارات! لأنها كانت أياماً صعبةً صعبة ومحرجة لها ايضاً.

تنهدت أمها وتابعت حديثها: «أما بالنسبة لزياراتك لنا، فلم يكن يسمح حتى الحديث عنها. وكان يقول إنّ لا وقت لديه ليأخذك إلى لندن ولن يسمح لك بالسفر بمفردك. شعرت حيالك بالذنب، ولكنني حينها لم أكن أستطيع تحمل النفقات أو الوقت لزيارتك كل أسبوع، يا حبيبتي».

أصبح روبرت جيرار غاضباً مثل أبيها ولكن بطريقة مختلفة إذ وضع يده حول كتف جولييت وصاح بخشونة: «هذا يكفي يا جاك! الا تستطيع أن ترى أنك تخيف هذه الطفلة؟ خذها إلى البيت الآن. وسنبحث الأمر في الصباح، عندما تكون أعصابنا قد هدأت».

زأر جاك نيوكوم: «لن أسمح لها بدخول بيتي ثانية. لقد حذفتها من حياتي نهائياً».

أطلقت جولييت صيحة قصيرة مرتجفة، مما جعل روبرت جيرار يشد عليها ويقربها منه لتلقي برأسها على كتفه.

ـ جاك، حباً بالله!

اعترض روبرت ولكن اباها كان قد استدار وأخذ بالابتعاد وكأنه قال كلمته الأخيرة في الموضوع.

عندئذ قال سايمون فجأة: «سأتزوجها!».

حدق إليه الرجلان العجوزان بصمت وكأنهما ينتظران أمراً ما.

حدّق سايمون بدوره اليهما وكان وجهه شاحباً وعابساً في آن واحد:

ـ ولكن يجب أن تتزوج وهي في بيتها وليس في بيتنا، لأن ألسنة الناس ستتناولها بالشائعات، وهذا ما تريد أن تتجنبه. أليس كذلك؟.

حملق روبرت جيرار إلى سماء ليلة الخريف الصافية ولون وجهه شاحب

مثل لون وجه ابنه، يفكر في الأمر وهو عاقد الحاجبين. ثم نظر إلى جاك نيوكوم واوماً برأسه موافقاً.

واستقرت الأمور على ذلك، فذهبت جولييت تلك الليلة إلى البيت مع والدها في صمت اللامسامح، وانتظرا يوم الزفاف، حيث ستنتقل بعدها للإقامة في شانتري.. ثم قرر سايمون وأبوه أن شهر العسل ضروري لئلا يتساءل الناس عن السبب في إسراعهما بهذا الزواج، ولهذا قاد العريسان سيارتهما مباشرة من مكتب القاضي الذي عقد القران مباشرة إلى فندق في مقاطعة تاونتون لقضاء بضعة أيام. ولكن جولييت استيقظت باكراً في الصباح التالي، وتسللت خارج الفندق قبل أن يستيقظ سايمون وخرجت من حياته بعدما تركت له مذكرة كتبت فيها:

«كل ما حدث هو خطأي، ولا يمكنني أن أتحمل تكرار ما حدث الليلة الماضية أبداً ولا أرغب أن أكون متزوجة. أرجو منك أن تطلقني، أو أن تلغي الزواج أو أي شيء آخر، ولكن لا تلاحقني لأنني لا استطيع تحمل رؤيتك ثانية، وأبداً. سأكون على ما يرام فأنا ذاهبة لأقيم مع أمي».

كان لديها من النقود ما يكفي لشراء تذكرة قطار إلى لندن فقط. وجلست في مقعدها طول الطريق في صمت وتوتر، وكأنها هاربة من العدالة وطوال الوقت كانت خائفة أن يلحقوا بها ويعيدوها إلى شانتري وشعرت بالخلاص والراحة الشديدة عندما وصلت إلى مقصدها.. شيرلي وجورجيو رحبا بها بأذرع مفتوحة رغم أن وصولها فاجأهما كثيراً. لم يصلهما خبر زواجها ولم تجد في نفسها القدرة لتخبرهما أي شيء عما حدث لها.

سألتها أمها: «هل تركت المدرسة؟».

أومأت بالإيجاب وأضافت: «وأريد العثور على وظيفة».

وافقها جورجيو بابتهاج: «لديك وظيفة منذ الآن! لديك وظيفة ومنزل معنا يا جولييتا».

ترقرقت الدموع من عينيها وقالت: «هل أنتما متأكدان أنني لن أكون

مصدر إزعاج لكما؟».

ـ إزعاج؟

كادت عيناه تدمعان من شدة التأثر، لأنه رجل عاطفي، ذو قلب رقيق: «أوه يا فتاتي العزيزة. أردناك دوماً معنا فهذا المنزل هو بيتك. وسوف يسعدنا كثيراً وجودك معنا».

أضافت أمها بأسلوبها العملي: «لدينا الكثير من الغرف».

ولكن الفرح كان نابعاً من وجهها: «تعالي معي يا حبيبتي كي تري غرفتك».

عندما أخذتها أمها إلى غرفة نومها الجديدة سألتها شيرلي بخوف:

ـ ما هي المشكلة يا حبيبتي؟ نحن مبتهجان لمجيئك إلينا، ولكن ما الذي دفعك للمجيء بالضبط؟ هل تشاجرت مع والدك؟

كانت متشوقة لتفصح عن أسرارها إلى امها، ولكنها خشيت أن تغضب أمها ويصيبها الذعر من أفعالها. ماذا لو ظنت أمها أنها السبب في ما حدث؟ وتذكرت الاشمئزاز الذي ظهر على وجه والدها عندما امسك بها مع سايمون وهي لن تتمكن من التحمل إذا اتخذت أمها الموقف ذاته منها.

ولهذا كذبت على أمها وأومأت برأسها: «نعم، هو... أنا..».

أثارت تأتأتها حس الأمومة عند شيرلي واستفاقت غرائز الغيرة على ابنتها فوضعت ذراعيها حول جولييت وحضنتها.

ـ يا طفلتي المسكينة! ماذا فعل بك؟ هل ضربك؟

ردت جولييت وقد شحب وجهها وهي تستعيد صورة أبيها في ذهنها.

ـ اوه، لا! لم يضربني قط، إنه فقط يوجه كلاماً لي... وينظر لي وكأني سا....

وأجهشت بالبكاء وعضت شفتيها.

بدأت العمل في المخزن الذي تديره شيرلي فيما كان جورجيو منشغلاً بالمخزن الثاني الذي افتتحه في حي نايتبريدج وظلت جولييت لبضعة اشهر

مسكونة بأشباح ما حدث لها وكانت تتوقع ظهور سايمون أو أبيها أو روبرت جيرار في أي لحظة لإعادتها. ولكن لم يأت أي واحد منهم وبدأ التفكير في هذه الأمور يخف تدريجياً حتى أقفل عليها عقلها.

شغلت حياتها الجديدة تفكيرها وأخذت معظم وقتها. كانت شابة تعيش في لندن، إحدى أكثر المدن سحراً في العالم وقد أبت أن تكون غير سعيدة.

مضت ثماني سنوات لم يعكر صفو أيامها أي شيء، ولكن الآن، ظهر سايمون ثانية من العدم.

كانت مذهولة لما سمعته منه. فقد حزنت على موت روبرت جيرار وصدمت أكثر عندما أخبرها بما جاء في وصيته فمن غير العدل أن يحرم سايمون من أملاكه في شانتري ولكن من غير المعقول أيضاً أن يتوقع سايمون منها فعلاً أن تأخذ ما عرضه عليها بجد. هل يمكنه ذلك؟

سمعت خبطة قوية على باب غرفتها فجفلت وانهارت اعصابها.

ـ هيا استيقظي يا جولي. القهوة جاهزة وسوف أحضر طعام الفطور.

سمعته يقول ذلك بصوته العميق، واستطاعت أن ترد عليه بنبرة خشنة.

ـ سأوافيك بعد خمس دقائق.

ضحك قليلاً وقال: «سوف أصدقك عندما أراك تنزلين بعد خمس دقائق».

شعرت أنه يتحداها فسارعت إلى الاغتسال وارتداء ملابسها والنزول إلى الطابق الأرضي. عندما وصلت، رأت سايمون وهو يضع طبقاً من اللحم المشوي والفطر على الطاولة.

جلس سايمون إلى الطاولة ونظر إليها بحاجب مرفوع: «لقد تمكنت من النزول بعد خمس دقائق فعلاً».

تجاهلت ملاحظته، وتناولت منه كوب القهوة الذي صبه لها: «من أين

جئت باللحم والفطر؟».

ـ اشتريت بعض الحاجيات ليلة امس من مخزن الاستراحة وأنا في طريقي إلى هنا، خشية ألا أجد هنا ما يكفي من الأطعمة الطازجة.

ـ شكراً، رائحة الطعام تفتح الشهية.

ألقت نظرة سريعة عبر النافذة. فرأت الحديقة صحراء بيضاء متماوجة، لم تطأها أي قدم. وقد غطى الثلج سور الحديقة، وهذا يعني أن كل الطرقات مقطوعة.

أخفضت رموشها بعصبية وهي تراقب سايمون. لم يعد يبدو شريراً مثلما بدا ليلة البارحة. كان واضحاً أنه حلق ذقنه واستحم ومشط شعره الأسود الأملس. وكان يرتدي سروال جينز وقميصاً قطنياً أزرق اللون وسترة بيضاء مضلعة. بدا مرتاحاً وغير متكلف، ولكن جولييت لا تشعر بالأمان معه أكثر من شعورها بالأمان عند مواجهة صقر جائم. نظر إليها عبر الطاولة ورأت في عينيه الرماديتين تعابير جعلتها متوترة.

ـ لن يكون باستطاعتنا الرحيل عن هذا المكان، ولهذا سيكون لدينا الكثير من الوقت.

ردّدت وراءه بصورة آلية كلمته الأخيرة وظهرت الحيرة على وجهها: «وقت؟».

ـ متسع من الوقت... لتبادل الحديث.

تمتم بذلك فيما كانت نظراته تقومها من رأسها حتى قدميها.

ظهر الاحمرار على وجهها ثانية. فتبادل الأحاديث ليس بالأمر المقلق، ولكن «الأشياء الأخرى» هي التي أقلقتها. يجب أن تفكر جيداً في كل ما ستقوله له قبل أن تنطق به، لأن مزاجه متعكر وينذر بالخطر. قد يكون في الظاهر مسترخياً، تعلو الابتسامة وجهه ولكنها تعرف أن تحت هذا القناع البراق يضطرم الغضب والعدائية اللتين تعرفهما جيداً. وأنه في أي لحظة قد يطلق عقالهما.

ـ هل تريدين المزيد من القهوة؟.

أخذت كوب القهوة دون تفكير وتمتمت بكلمة «شكراً». لا يمكن أن تبقى معه هنا ولكن كيف السبيل إلى الهروب منه؟.

سألها بتهذيب: «كيف حال أمك؟».

ردت عليه وهي تحدق إلى ما وراء النافذة بحزن:

ـ على أحسن ما يرام.

انتبه سايمون إلى نظرة الذعر في عينيها ونظر إلى ما تحدق إليه. وابتسم.

ـ يا إلهي! إنها تثلج ثانية، قد نعلق هنا عدة ايام.

أجابته بصوت مرتفع: «سيرسلون كاسحات الثلج لفتح الطرق».

ـ سيفتحون الطرق الرئيسية العامة أولاً، ولن يفتحوا هذه الطريق قبل الانتهاء منها.

نظرت إليه بحدة وعبوس وسألته: «بالمناسبة، كيف عرفت بهذا المكان؟ وكيف عثرت عليه؟»

هز كتفيه غير مكترث:

ـ أجريت الكثير من المخابرات الهاتفية بعد ظهر أمس. عندما وصلت إلى لندن ولم أجدك في شقتك، اتصلت بشقة أمك، ثم اتصلت بكل مخازن شركتكم حتى توصلت أخيراً إلى شخص قال لي إنك في كورنوول.

خمنت جولييت من يكون هذا الشخص. إنها ساندي بلا ريب أو شك.

رمقته بريبة: «أنت لم تخبرها... عن شيء... هل فعلت ذلك؟»

سخر منها وهو يشاهد الاحمرار يعلو وجنتيها: «تقصدين زواجنا».

أضاف: «لا، لم أكن بحاجة لإخبارها. كل ما قلت لها إنني بحاجة ماسة للتكلم معك بشأن وفاة أحد أفراد العائلة، ولسبب ما، بدا أنها تعتقد أني أتكلم من إيطاليا، ولهذا أخبرتني أنك في كورنوول. ثم تمتمت بشيء عن والدتك، ولهذا لم أكن متأكداً إذا كنت معها هنا ام لا، ولم تكن ساندي تعرف عنوان هذا الكوخ ورقم الهاتف، ولكن الحصول عليهما لم يكن

صعباً».

قالت بمرارة: «أستطيع المراهنة على ذلك».

ـ كما تعرفين اسم مندللي غير شائع في انكلترا. وعليه، دخلت إلى مكتبة عامة وبحثت في دليل هاتف مقاطعة كورنوول، ثم اتصلت بالرقم للتأكد من وجودك فعلاً. وعندما أجبتِ أنت عن المخابرة، ركبت سيارتي وانطلقت بها. ولأنني أملك خارطة مفصلة عن هذه المقاطعة لم يكن صعباً العثور على أقرب قرية من هذا الكوخ. توقفت عند محطة للتزود بالوقود والطعام، وهناك أخبروني كيف اصل إلى الكوخ. طبعاً، ظن الجميع أنني مجنون لقيادتي السيارة في هذا الطقس الرهيب.

ردت على قوله: «أنت فعلاً مجنون!»

نظر إليها متسائلاً: «ماذا عنك؟ ما الامر المهم الذي دفعك للمجيء إلى هنا في هذا الوقت من السنة؟»

شرحت له القصة كاملةً، عن أعمال البناء لتوسيع المطبخ ورغبة أمها في تفقد ما انتهت إليه هذه الأعمال. ونظر إليها ساخراً.

ـ إذاً، فيما أمك تقضي العطلة في إيطاليا تحت الشمس الدافئة، فُرض عليك أن تقودي سيارتك كل هذه المسافة ومواجهة عاصفة ثلجية؟

ـ أمي ليست في عطلة!

ـ لماذا هي في ايطاليا، إذاً؟

ترددت قبل أن تقول: «لقضاء بعض الأعمال».

لم في يكن نيتها إخباره عن المشاكل التي وقع فيها جورجيو، لئلا يسيء الظن به.

رفع حاجبيه الأسودين وعلق:

ـ أن أتخيلها امرأة أعمال ناجحة، لأمر لا يصدق فعلاً. أذكرها امرأة صغيرة الحجم هادئة، تعيش دائماً في الظل. ولقد دهشت عندما هربت من والدك، اعتقد أبي أنها ستعود إلى شانتري وكان يقول إن ما فعلته هو الجهل

في الكبر.

لمعت عينا جولييت بالغضب: «لقد أحسنت أمي بتركه فلولا ذلك لما تعرفت بجورجيو الذي أحبته ثم أنا لا ألومها على ذلك فقد أمضت فعلاً سنوات طويلة من «العيش في الظل»، مثلما قلت. لماذا هربت برأيك؟ الحياة مع والدي كانت تقتلها ببطء، وكانت تعتبر الحياة معه أشبه بالحياة على جزيرة قاحلة مع شخص يبدو أنه لا يعبأ بها أو يهتم لها. . كانت بطبيعتها شخصاً عفوياً وحيوياً ولكن انعزالية أبي كادت تطفئها».

تمايل في مقعده ومرر أصابع يده بين خصلات شعره وهو متجهم:

ـ أبوك رجل يصعب العيش معه، وأنا أوافقك الرأي.

ونظر إليها متحدياً: «ألا ترغبين بمعرفة أحواله؟»

نظرت إلى عينيه الرماديتين ورفعت ذقنها: «هل أرسل معك رسالة لي؟».

هز رأسه بالنفي واستمر بتفحصها.

ظهر الشحوب على وجهها وهي تقول: «على أي حال، لا أريد أيضاً أن أسمع عنه شيئاً، فقد قررت يوم غادرت شانتري أن أنسى وجوده».

جسّت عينا سايمون الحادتان تعابير وجهها مثل مبضع جراح بحثاً عن نقاط ضعف ثم هز كتفيه متهكماً: «ما تزال صحته جيدة، وأعتقد أن السبب هو أسلوب حياته. هو يكرهني بالتأكيد كثيراً، ولا يحاول إخفاء ذلك. مع أنه ينفذ أي أمر آمره به بشأن العمل، دون أن ينبس بكلمة، وإذا تلاقينا يكتفي بالإيماء بطريقة تدل أنه يحملني مسؤولية كل ما حدث».

تمتمت وهي تغض البصر: «حسناً، أصبح من يحملك هذه المسؤولية اثنين، أنا وهو».

ـ ماذا قلت؟

أجفلها صوته ولكنها أعادت بعناد ما قالت له وبصوت مرتفع.

صاح بها: «أنت تلومينني؟».

وضحك بطريقة فظة لا تشوبها الفكاهة.

ـ هذه طباع النساء. لا يعترفن بالخطأ. أليس كذلك؟ ألم ترمي نفسك عليّ يوماً بعد يوم؟ ألم توضحي تماماً ما الذي كنت تسعين إليه...

دافعت جولييت عن نفسها: «لم أكن مدركة ما أفعل... كنت واقعة...».

كانت واقعة في حبه حتى الجنون. واستولت على قلبها وعقلها رغبات لم تختبرها من قبل ولا عرفت كيف تعالجها. لو صدها لما أظهرت أبداً مشاعرها له بهذا الوضوح. كان باستطاعة سايمون أن يحوّل مجرى الأحداث.. كان باستطاعته تثبيط عزيمتها بأسلوب لطيف، ولكنه لم يفعل، بل على العكس جعلها تقتنع بأنه يكن لها المشاعر الجياشة نفسها.

في تلك الليلة، اتهمته:

ـ كان باستطاعتك إبعادي عنك ولكنك لم تفعل، ما كان عليك أن تعانقني في تلك الليلة.

كرر كلامها بغضب شديد: «أنا عانقتك؟!» والتهب اللون الأحمر على وجهها.

ـ حسناً، ربما أنا التي همت بمعانقتك، ولكنك لم تكن مجبراً على مبادلتي العناق، كنت مجرد مراهقة وأنت كنت رجلاً بالغاً.

أخذ بالصياح: «ومن دفع الثمن، أنا، لقد أكرهوني على الزواج بك، أتذكرين؟ وكان هذا ثمناً باهظاً».

ضحكت بمرارة: «اوه، أنا اتذكر، ومن أجل استيفاء هذا الدين جعلتني أدفع الثمن ليلة زفافنا. أليس كذلك؟».

اكفهر لون وجهه وقبض يديه. وشعرت للحظة بالتوتر خشية أن يفقد سايمون السيطرة على نفسه، كما فقد السيطرة عليها ليلة زفافهما.

تذمر وبدا على وجهه التوتر الواضح:

ـ كنت غاضباً أكثر مما غضبت في حياتي كلها.

ـ ما كان يجب أن تعاملني بتلك الوحشية البالغة!

اتقدت عيناه غيظاً:

ـ ساعدني يا رب!! جولييت إذا لم تتوقفي عن التفوه بهذه السخافات فسوف....

قاطعته وهي تتنفس بصوت مسموع:

ـ ماذا ستفعل؟ هل ستضربني؟.

ـ لست من النوع الذي يضرب النساء. ولكني سأجعل منك استثناء والسبب في تصرفي معك بقسوة ليلة زفافنا هو غضبي الشديد لإكراهي على الزواج بك.

أجفلت وعضت على شفتها فلما لاحظ ردة فعلها تنهد عابساً:

ـ أنا آسف يا جولييت! إنما أظنك تتفهمين الآن موقفي حينذاك، وتتفهمين سبب ما انتابني يومذاك؟ لقد أصبحت امرأة ناضجة. لولا اتهامات والدك ونعتي بأفظع النعوت.. يا إلهي! ماذا كان بوسعي أن أفعله غير الزواج بك؟ وبعد ذلك شعرت أني أبله وأني وقعت في فخ. أبي وأباك استقرا على هذا الرأي. وكنت أعلم أنه لو استطعت أن أقنع أبي بأنك ما تزالين عذراء، وأنه لم يحدث بيننا أي شيء، لما اقتنع والدك ولبقي مصراً على اتمام الزواج.

انفجرت به وهي ترتجف: «كف عن التكلم بهذا الموضوع!».

سايمون كان على حق وباستطاعتها أن تتفهم ما شعر به حينذاك وربما راودتها المشاعر ذاتها؟ لقد حطم والدها شيئاً ما في داخلها، وحبها لسايمون تحوّل مرارة وهي تواجه عيني والدها المثقلتين بكافة التهم. حاولت أن تقنع نفسها أنها سعيدة بزواجها به وأن احلامها قد تحققت، ولكنها أصبحت تخشى المستقبل حتى قبل أن يعاملها بقسوة ليلة زفافهما.

انتفض سايمون وقال لها: «يجب أن نتكلم عن هذا الأمر آجلاً أو عاجلاً، لأن ما حدث دفع بوالدي إلى تغيير وصيته وحطم حياتي».

ـ وماذا تعتقد أنه فعل بحياتي؟.

صمت ثم نهض فجأة وبدأ ينظف الطاولة من بقايا الطعام ويجمع الصحون والأطباق الفارغة.

شعرت بالفرح وأخذت تساعده في حمل الأطباق إلى المطبخ ووضعها في الجلاية الكهربائية، عندما انتهيا من ترتيب المطبخ وطاولة الطعام، بدأ سايمون يتجول في الغرفة ويتأمل الصور والديكور. تابعته بأنظارها وهي تشعر بالاضطراب كقط صغير خائف، تفكّر في ما يمكن أن تقوله لإقناعه بالرحيل عن الكوخ. عندما نظرت من النافذة رأت أن الثلج مازال يتساقط وأن الرياح تولول خارج البيت وأنه لن يكون هنالك إمكانية لمغادرة المكان قبل مضي وقت طويل. ولكن وجودها بمفردها معه أبقاها متوترة.

علق بصوت جاف: «يبدو أنك اصبت النجاح في حياتك».

قطع قوله ذاك الصمت الذي خيم عليهما، وألقى بنفسه على الاريكة القريبة من المقعد الذي تجلس عليه، يحدّق إليها ويداه معقودتان خلف عنقه:

ـ لقد وفر لك هروبك بداية جديدة في الحياة. كان يجب أن أهرب ايضاً، ولكني شعرت بأنني غير قادر على التخلي عن أبي، كان عليّ البقاء ومواجهة النتائج. ولم يكن ذلك سهلاً. صدّقيني.. خاصة أن أباك كان يعاملني وكأنني متشرد. لقد جاء إلى جنازة والدي ولكنه لم يتكلم معي ولم يعزني بكلمة حتى.

ـ لا أستطيع أن أستوعب كيف تحملته أمي طول السنين التي عاشتها معه.

ردّ عليها سايمون: «لا بد أنها أحبته في يوم من الأيام».

ـ أحبته فقط لأنه كان مختلفاً عن أي شخص آخر عرفته. لقد أخبرتني ذات مرة أنها تزوجته لأنه كان رجلاً عاصياً على الفهم، صامتاً وغامضاً، ولأنها ظنت أنها المرأة التي ستستطيع اختراق جدار صمته وتفهمه...

ولكنها لم تستطع. ما لم تدركه قط، أنه لم يكن بحاجة إليها أو إلى أي شخص آخر. لا أدري ماذا كان سيصيبها لو لم تقابل جورجيو الذي هو رجل محبب وهي سعيدة معه. لقد أصبحت امرأة مختلفة تماماً. لقد بنيا معاً مؤسسة تجارية ناجحة وهما شريكان في كل شيء، يتخذان القرارات المهمة معاً ويمضيان معظم أوقاتهما معاً، ويعملان بسعادة معاً، وهذا عكس السنوات التي عاشتها مع أبي.

ـ لقد قرأت مرة مقالاً عنهما. كانا يفتتحان مخزناً جديداً في مانشستر، ونشرت الصحيفة صورتهما أيضاً، تذكرت أمك رغم أنها تغيرت كثيراً. أستطيع أن أفهم وجهة نظرك، فلقد بدت سعيدة. لم تكن لدي فكرة عن مدى نجاح أعمالها حتى قرأت المقال. لقد أتوا على ذكرك في المقال أيضاً: ابنتهما، جولييت التي تعمل في مقر الشركة في لندن. السمراء الأنيقة، هذا ما أطلقته عليك الصحافة.

رفرف عيناه بتمعن فيها: «أنيقة؟ هم م م... لا أعتقد ذلك، ليس هذا الصباح».

ارتدت جولييت ثياباً تبعث الدفء في أوصالها بسبب هذا الطقس البارد، وكانت قد تركت هذه الملابس في الكوخ بعد زيارتها الأخيرة للمكان في الخريف، ولم تهتم بأخذها معها بعد ذلك فغسلتها وتركتها في أحد الأدراج وقد وجدتها في الصباح تفوح منها رائحة أكياس المريمية الموضوعة في طيات الملابس. هذه الملابس عبارة عن سروال جينز قديم وقميص اصفر مقلم رجالي من ايطاليا كانت قد استعارته من جورجيو منذ سنوات، ففي فترة ما في حياتها رغبت في ارتداء ملابس الرجال، القمصان والسترات والمعاطف. وارتدت فوق القميص سترة صوفية سميكة ومريحة. وكان عندها دافع آخر لارتداء هذه الملابس عدا اتقاء البرد. فقد كانت هذه الملابس الأقل جاذبية بين الملابس الموجودة معها، فارتدتها كدرع ضد سايمون.

ـ تبدين متواضعة وعملية وكأنك مستعدة لمواجهة أي أمر يطرأ.

لا تظن أنه يمدحها فلعله خمن سبب ارتدائها هذه الملابس ألا وهو تنفيره منها. تلكأ قبل أن يستأنف كلامه:

ـ هل أنت مستعدة؟

حملقت حائرة: «أنا، ماذا؟»

ـ مستعدة لمواجهة أي أمر يطرأ!

أجابها بذلك وهو يتابع التمعن بها ويبتسم فيما كان الاحمرار يدب في وجهها: «أتعرفين أني وجدت صعوبة بالتعرف إليك، ولو التقيتك في الشارع لما عرفتك، على الأرجح».

ـ أنت لم تعرفني قط.

ـ نحن هنا، بمفردنا... وفي هذه المرة سنتعارف جيداً.

نهض عن مكانه فأصيبت بالفزع وسعت للنهوض بسرعة.

ـ لا تلمسني!

كادت تنسى ما يمثله لها من تهديد وحاولت أن تقنع نفسها أنه لم يكن يعني ما طلبه منها، ولكن الخوف استولى عل كيانها فجأة وبدأت ترتجف بشدة: «لا أستطيع التحمل إذا لمستني».

ـ سيتوجب عليك تحمل الأمر.

أجابها بذلك بصوت خفيض أجش، وظهر في عينيه إصرار مقلقل ينذرها بأنه يعني كل كلمة يقولها.

***

٤ ـ في مخالب الصقر

ـ سأخرج كي أتمشى.

غامرت جولييت بهذه المحاولة، واتجهت نحو الباب وهي تأمل ألا يحاول منعها.

لم يحاول منعها، ولكنه تبعها بخطوات عريضة غير متسرعة:

ـ فكرة جيدة، يبدو أن تساقط الثلج قد توقف. وأصبحت السماء زرقاء صافية مثل عينيك.

طرفت عينيها وقد أخذت بهذا التشبيه، ولكنها لم تتجرأ على النظر إليه. واكتفت بالتقاط معطفها المصنوع من جلد الغنم من الخزانة الموجودة في الرواق وتدثرت به ثم انتعلت جزمة قديمة رثة وجدتها في الخزانة ووضعت يديها داخل قفاز صوفي. اعتمرت قبعة صوفية مماثلة كانت قد اشترتها خلال رحلة قامت بها مع جورجيو وأمها إلى اسكتلاندا منذ عدة سنوات وكانت تحتفظ بهما في كوخ كورنوول، لأنها الثياب المثالية للمشي الطويل على الأراضي البور في الأيام الباردة.

رمقت سايمون ولاحظت أنه ارتدى سترته الجلدية وانتعل حذاءه الأسود الطويل فبدا أشبه بسائقي الدراجات النارية، كما وضع يديه في قفازه الجلدي. قالت له بصورة عفوية: «لدينا وشاحات هنا، ويمكنك استعارة واحد منها».

ثم أخرجت من الخزانة وشاحاً صوفياً طويلاً أحمر اللون، يخص

www.elromancia.com

جورجيو وقدمته له.

قال سايمون: «شكراً».

ثم أحنى عنقه: «ضعيه حول عنقي، هلا فعلت ذلك من فضلك؟».

ترددت ثم رمته بسرعة حول عنقه وهي تحاول ألا تلامسه، ولكن يدها بسبب عجلتها لامست خده.

أحست وكأن تياراً كهربائياً صعقها وكادت تصرخ من شدة الدوي الذي شعرت به داخلها بسبب هذه الملامسة البسيطة. نظر إليها وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة.

ـ شكراً لك!

أشاحت بوجهها عنه وفتحت الباب الخارجي ونظرا معاً إلى الخارج، فغشيت أعينهما بسبب نور الشمس الباهر الذي كان يعكسه سطح الثلج الشبيه بمرآة. كانت الريح قد خفت وحرارة الجو قد ارتفعت قليلاً. بدا المنظر رائعاً ومذهلاً: مساحات شاسعة من الثلج الذي لم تطأه الأقدام، وسماء زرقاء صافية. إن المنظر جميل، يقطع الأنفاس ويبهر الأبصار. حملقت جولييت في هذا الفراغ وعضت على شفتها.

قال سايمون بنبرة جافة: «هل غيّرت رأيك؟ الطقس بارد!».

ألقت عليه نظرة استياء وأغلقت باب الكوخ الخارجي وراءها.

ـ بالتأكيد لا.

وبدأت تمشي بخفة ونشاط وسار هو إلى جانبها متتبعاً وقع خطاها بسهولة لأن ساقيه أطول كثيراً من ساقيها. شاهدت ظله وهو يتحرك على الثلج إلى جانب ظلّها. وسرحت أفكارها في هذا الظل المتطاول والغريب والمقلق نوعاً ما في هذا المكان الشاسع والخالي، ظل كأنه يسكنها أو يطاردها. واحست برعشة في داخلها.

قالت له: «هل ترغب حقاً بعبور هذه الأراضي البور؟ تذكر أن السير على الأراضي ليس سهلاً».

ابتسم لها وقد أدرك أنها تتحداه: «اوه، أعتقد أني كفؤ لهذا الأمر».

ـ حسناً، ولكن لا تقل إني لم أحذرك.

خرجا عن الطريق إلى الأراضي المفتوحة وتباطأت خطاهما عندما أصبح عبور الأراضي العشبية المغطاة بالثلج صعباً. وعندما وصلا إلى منحدر عشبي تحوّل الثلج فيه إلى جليد، شعرت جولييت أن قدميها خارتا من تحتها وانزلقت وهي تصرخ وتلوح بذراعيها، وحطت على مؤخرتها بقوة، وسمعت سايمون على أثرها يضحك عليها.

هكذا! هل يعتقد أن سقوطي أمر مسل؟ شعرت أنها حمقاء خاصة بعدما حذرته من السقوط على الأراضي الزلقة، وجعلها هذا الشعور عدائية. وفيما كان الاحمرار الشديد يعلو وجهها وعظامها تئن من أثر السقطة، جرفت بيدها بعض الثلج وضغطته على شكل كرة ورمته بها.

أصابت هدفها مباشرة إذ وقعت على رأسه وغطى رذاذ الثلج المتناثر شعره الأسود فجأة، وتجمدت في مكانها فاغرة فاها، لأنها لم تكن قط ماهرة في إصابة الهدف. عليها أن تنهض وتهرب، لأنها تشكل بوضعها هذا هدفاً سهلاً، ولكن سايمون تحرك بسرعة لسعة ثعبان.

انحنى ثم استقام وبعد ثانية رماها بكرة الثلج وتناثر الرذاذ فوقها وحولها. رداً على ذلك، أمسكت بحفنة ثلج أخرى ووثبت على قدميها ثم أطلقت ذخيرتها قبل أن ينطلق في أعقابها. سمعت خطوات سايمون وهو يلاحقها، فزادت في سرعة جريها وباتت أنفاسها ثقيلة ومتقطعة.

أدركها وأمسك بها في لحظات وأحاطها بكلتا ذراعيه. قاومت بضراوة وبان الفزع على وجهها، صاحت به: «دعني!».

وأخذت تقوّس جسمها بعيداً عن الالتصاق بجسمه أما هو فكان يشدد عليها ذراعيه القويتين.

ـ كفي عن مقاومتها.

نظر إليها بتمعن وعيناه الرماديتان تلمعان، ورغم خوفها لم تفتها

ملاحظة ما قاله للتو، قال لها: «كفي عن مقاومتها» ولم يقل «كفي عن مقاومتي». وكان يشير بذلك إلى أنها ما تزال تحتفظ نحوه بشيء من الانجذاب، وأنها تقاوم رغبتها في عناقه.

ـ أنت مخطىء، أنا لا أريد ذلك.

كذبت عليه إذ كانت تحدق إليه ومشاعر متضاربة تعصف بها. والواقع أنها لا تستطيع تفسير ما تشعر به نحوه إلا أنه ليس الرغبة فيه. ومع ذلك، جف حلقها وشعرت بدوار غريب. حاولت أن تقول «لا» ولكن شفتيها تحركتا من دون أن يصدر عنهما أي صوت، فيما كان ينظر إليهما بتمعن كأنه يقرأ ما ارتسم عليهما.

همس لها: «بلى!».

ثم رفع يديه واخذ وجهها بين راحتيه.

لم تستطع تجنب ما حدث فقد كان يمسك برأسها حيث يريده أن يكون. في البداية كادت أنفاسها تنقطع. ازداد عناقهما شدة ونهماً، وارجع سايمون رأسها إلى الوراء مما جعلها تمسك به حفاظاً على توازنها وتتعلق بكتفيه. أغمضت عينيها لأنه بدا أن السماء الزرقاء تدور فوقها وأن رأسها يدور معها أيضاً. كان يعانقها برغبة حارة أما هي فعجزت عن مبادلته العناق بالشغف ذاته، ولكن جسمها كله كان يرتعش وتوقفت عن أي مقاومة.

قطع سايمون عناقه كما بدأ به، ورفع رأسه إليها فشعرت أنه ينظر إليها وهي متعلقة بكتفيه مرتجفة، مغمضة العينين، وجسمها يحترق من المشاعر التي أشعلها عناق سايمون.

وحذرها سايمون برقة وتهكم:

ـ في المرة القادمة عندما تراودك فكرة قذفي بالثلج أو بأي شيء آخر فتذكري ما ستكون عليه النتائج وأعيدي التفكير ثانية.

فتحت عينيها واعتلى وجهها الاحمرار.

ردت عليه بغضب شديد:

ـ أشكرك على هذه المعلومة التي لن أنساها أبداً. ومن المؤكد أنني لا أرغب أن يتكرر ما حدث الآن ثانية.

أجابها بنظرات هازئة، «هل انت متأكدة؟ لدي انطباع بأنك استمتعت بالأمر».

ـ أنا متأكدة.

انتفضت وقد زاد غضبها لأن ما يقوله صحيح تماماً. وآخر ما تريد أن يعرفه عنها هو أنه يستطيع شل مقاومتها بهذه الطريقة. فهي منجذبة إليه جسدياً، ولا تستطيع إنكار ذلك حتى بينها وبين نفسها ولكن ذلك لا يعني شيئاً. من المحتمل أن يرتكب جسدها أخطاءً جساماً، أما عقلها فيمكن الاعتماد عليه أكثر لكبح رغبات جسدها.

ابتعدت عنه وهي تتجنب نظراته الحادة والنافذة وأخذت تسير بسرعة باتجاه الكوخ. وأدركت بعد هنيهة أن سايمون يتبعها من صوت وقع قدميه على الثلج. امتد أمامها خطان متوازيان من آثار الأقدام، قدميها وقدميه، يشيران إلى الطريق الذي أتيا منه.

سألها سايمون من وراء ظهرها:

ـ لماذا لا تسيرين على أدراج آثار اقدامنا مثلما فعل الملك ويتسيلاس؟

لكنها تظاهرت بأنها لم تسمعه وتابعت السير مبتعدة قليلاً عن الخط الذي رسمته آثار أقدامهما.

أوقف سايمون سيره بعد لحظات، ولم تنظر جولييت إلى الوراء وتابعت سيرها حتى سمعته يناديها:

ـ انظري إلى ما يطير فوق أشجار الصنوبر، لقد جاء للتو... إنه صقر... ما نوعه؟ هل تستطيعين تمييزه؟ هل هو الشاهين؟

توقفت جولييت عن السير ووضعت يدها فوق عينيها لتظللهما من أشعة الشمس ونظرت إلى السماء الزرقاء. شاهدت شكلاً أسود فارداً جناحيه يحوم مع الريح. ولكنه كان بعيداً جداً ولم تستطع أن تميز نوعه.

قال سايمون: «أعتقد أني رأيت لطخة بيضاء على حجره».

ـ أذاً هو شاهين.

وافقت معه وهي تمعن النظر محاولة رؤية اللطخة البيضاء التي تدل على نوعه. وفي هذه اللحظة انقض الصقر إلى الأسفل حتى غاب عن النظر وبعد لحظة حلق إلى الأعلى ثانية وهو يحمل شيئاً بين مخالبه. فتنهدت جولييت وصاحت: «لقد قتل عصفوراً».

كان سايمون قد أصبح إلى جانبها وألقى نظرة حادة على وجهها المستهجن، وذكرها: «يجب أن يقتل كي يعيش».

انتفضت غضباً: «كنت تقول لي دائماً ذلك عندما كنت صغيرة، وأنا كنت أكره ذلك حينها وما زلت أكرهه الآن».

لم تتغير تعابير وجهه وكأنه يضع قناعاً عليه.

ـ كرهت الأمر أم لا، فهكذا تجري الأمور في الطبيعة ولا تستطيعين شيئاً حيال ذلك يا جولييت.

ردت عليه وهي مضطربة:

ـ ولكني لست مجبرة على الرضى.

وامتلأ عقلها بصورة ذلك العصفور الصغير الرقيق وهو يقاوم ضراوة المخالب التي تحمله بعيداً.

أمسك سايمون بذقنها ورفع وجهها، وكانت عيناه الرماديتان والباردتان تحومان فوقه دون وجل.

ـ الطبيعة هي الأنياب والمخالب الحمراء، لايمكنك تغيير طبيعة الأمور، ومحاولة الوقوف في وجهها يؤدي إلى كارثة.

نظرت إلى عينيه بغضب وعناد، فحديثهما عن الصقر وفريسته أصبح مجازياً وكما يقول المثل «إياك أعني واسمعي يا جارة»، وكلاهما عرف ذلك.

قالت وهي تهز كتفيها بعدم اكتراث: «ولكن هذا ظلم».

ـ اسمعي. الصقور طيور جميلة ونادرة، ولكن الله لم يخلقها لتكون

نباتية. ولا أحد يستطيع أن يغير قوانين الطبيعة يا جولييت. يجب أن تكون هذه الطيور قاسية وإلا ماتت وفنيت.

سايمون يجب أن يكون قاسياً أو يخسر مزارع شانتري، هذا ما يقوله لها، فيما فمه المشدود وعيناه اللتان لا ترحمان تحذرانها من مغبة الهروب من قدرها المحتوم الذي خطط له.

صرخت معترضة: «لا».

وسحبت رأسها من يده وحاولت أن تجري. أفلتها سايمون ولم يحاول اللحاق بها. تعثرت فوق الثلج وانقطعت أنفاسها وشعرت أن ساقيها ترتعشان تحت وزنها. سمعت وقع خطواته المتباطئة في أعقابها، تلاحقها دائماً، ولا شيء يهزها ويمنع تقدمها، خطوات مؤكدة مثل الموت.

وصلت أخيراً إلى الكوخ، فتحت الباب ونفضت الثلج عن جزمتها خارجاً قبل أن تدخل. خلعت جزمتها وتركتها على ممسحة الباب الموجودة في المدخل. ثم خلعت معطفها وقبعتها وقفازيها، وهرعت إلى المطبخ لتحضر القهوة.

سمعت سايمون ينفض مداسه العالي من الثلج، وتردد صدى هذه الخبطة في رأسها، هذه الخبطة التي أغلقت عليهما الباب وأغلقت عنهما العالم الخارجي برمته.

حالما وضعت وعاء القهوة على الموقد. هرعت إلى غرفة الحمام في الطابق العلوي، ونادته في طريقها: «لقد وضعت القهوة على النار».

سألها سايمون وهو في الرواق: «بماذا أساعدك؟».

ردت على عجلة من دون أن تلتفت إليه: «جهز الأكواب».

بعد أن غسلت يديها، نظرت إلى نفسها في مرآة الحمام. كان وجهها يشع باللون الوردي الدافىء الذي نتج عن الهواء البارد والجري. وكانت عيناها تلمعان وكأنها مصابة بالحمى. تمعنت النظر في صورتها داخل المرآة وقد اعتراها القلق والتنبّه.

لم يمض على وجوده معها أكثر من ساعات قليلة، وها هو يغيّرها جذرياً فهي لم تبد عل مثل هذه الصورة من قبل.

سألت نفسها غاضبة: «مثل ماذا؟ مثل ماذا، يا إلهي؟ وعلى أي صورة أبدو؟ سايمون لن... حسناً، هو لن...». كان من الصعب عليها جداً أن تضع أسوأ مخاوفها في كلمات. وترددت حتى بالتفكير فيها. ولكنها كانت مجبرة على ذلك. سايمون لن يستعمل القوة ليخضعها لرغباته.

نظرت في المرآة ثانية وحدقت إلى نفسها، لا هذا لا يعقل. سايمون لن يلجأ إلى هذا الأسلوب، فمهما كان قادراً على فعله من أمور أخرى، فإن هذا لأمر غير ممكن. كانت متأكدة أنه ليس من النوع الذي يغتصب امرأة.

ولكن ذلك لم يرفع من معنوياتها، وبقيت متوترة، لأن ذلك ليس هو الأمر الذي كانت تخاف منه، فالأمر الذي كان يزعجها حقاً، هو أن سايمون قد لا يحتاج حتى إلى اللجوء للقوة. وهذا ما يملأ قلبها رعباً الآن. إنه ينوي إغواءها وهذا ربما ما قد يفعله.

«أنظري إلى نفسك!» نادت على صورتها في المرآة، تلوم نفسها، «انظري فقط إلى نفسك! بعناق واحد جعلك تهذين وجعل ركبتيك تصطكان وأصبحت تبدين وكأن حمى أصابتك».

ما الذي سيحدث عندما يتحرش بها؟ هذا ما سيفعله على وجه التأكيد. ولا تخطئي التقدير! لقد جاء وهو مصمم على جرّك إلى السرير معه، ولا يمكنك الهروب منه، إذاً، ماذا يمكنك أن تفعلي؟ كيف ستستطيعين منعه من الاقتراب منك؟

أسئلة كثيرة ترددت في ذهنها لكن، لا جواب واحد.

أدارت ظهرها إلى المرآة وتنهدت وهي تشعر بالعجز. ونزلت إلى الطابق الأرضي مكرهة. فقط لو لم يكن هذا الكوخ بعيداً جداً عن الأماكن المأهولة.

كشفت لها نزهتها خارج الكوخ مدى ارتفاع الثلج وعدم إمكانية قيادة السيارة للوصول بها إلى الطريق العام. إنها سجينة هنا، مع سايمون، في

الوقت الحاضر. وكان عليها التفكير في طريقة للتعامل معه. ولكنها لم تكن تدري بتاتاً، كيف.

حالما وصلت إلى القاعة رن جرس الهاتف، وأجفلها صوت الرنين.

ناداها سايمون من المطبخ: «هل أرد على المخابرة»؟.

شعرت بالذعر يستولي عليها: «لا، شكراً، أنا سأجيب».

وهرعت لالتقاط سماعة الهاتف الموجودة في غرفة الجلوس، ربما أمها هي التي تتصل بها لتسرد لها آخر أخبار جورجيو، وهي بالطبع لا تريد أن تسمع أمها صوت سايمون فتعظم الأمور.

ظهر سايمون على مدخل غرفة الجلوس وأخذ يراقبها، وقد ضاقت عيناه وظهر فيهما الحذر والتنبه. فأدارت ظهرها له كيلا يرى تعابير وجهها.

قالت: «ألو» وهي تتوقع سماع صوت أمها.

- إذاً، نفذت ما عوّلت عليه.

سمعت صوتاً مهذباً وللحظة لم تستطع تمييزه، خاصة بعد كل ما حدث معها منذ تركت لندن.

تابع الصوت الصاخب كلامه: «بصراحة، لم أعتقد أنك ستنفذين ما قلت».

وهنا توضحت هوية المتصل وتنفست بصعوبة.

- اوه... آدم.

شعرت أن سايمون اقترب منها أكثر منتبهاً بكليته إليها.

سألها آدم كأنه يتوعدها ويتوسل إليها في آن واحد: «هل ستعودين الليلة؟».

قالت وهي تتمنى لو يبتعد عنها سايمون، ويتوقف عن مراقبتها واستراق السمع، فيكفيها صعوبة الموقف مع آدم من دون وجود مستمعين:

- أنا آسفة.

انفجر بها آدم: «جولي. أنت تعرفين مدى أهمية هذا الأمر لي! لا تكوني

عنيدة... باستطاعتك الوصول إلى لندن في الوقت المحدّد إذا انطلقت الآن».

ـ ألم يتساقط الثلج في لندن؟ لقد أثلجت طوال الليل هنا... وكل الطرق مقطوعة بالكامل. وليس هنالك أي إمكانية للعودة، حتى لو خرجت فوراً.

صاح آدم معنفاً وبصوت مرتفع وشعرت أن سايمون سمع هذه الكلمات فرمقته بنظرة جانبية ورأت أنه أصبح قريباً جداً منها وأنه ينصت باهتمام. حدقت إليه بغضب وعبست ثم لوحت له بيدها كي يبتعد إذ لا يحق له أن يستمع إلى مكالماتها الشخصية.

ولكنه لم يتزحزح من مكانه، وأسند ظهره إلى الحائط القريب بكسل، وارتسمت تعابير عذبة على وجهه. أما هي فأدارت ظهرها له واستأنفت التحدث على الهاتف برقة:

ـ أنا حقاً آسفة يا آدم، لو كان باستطاعتي العودة لعدت.

ثم أضافت وكأنها توجه الكلام إلى سايمون: «ليتني لم آتِ، ليتني بقيت في لندن معك في أمان وثبات».

وكانت حقاً تعني ذلك وظهر الصدق في نبرة صوتها. ولكن لأسباب تختلف عن الأسباب التي لمحت له بها. ولكن ذلك لا يهم، لأن الغضب أعمى آدم بحيث لن يستطيع التقاط ذبذبات نبرتها.

قال لها غاضباً: «لقد فات آوان الندم الآن، أليس كذلك؟ ماذا يفترض أن افعل؟ فأنا لا أستطيع حضور هذه المناسبة بمفردي ويجب أن أصطحب امرأة أخرى».

ـ أعلم ذلك، وأنا متأسفة يا آدم.

شعرت وكأن عيني سايمون تحفران ثقباً في مؤخرة رأسها، فاستشاطت غضباً وصاحت:

ـ لماذا ليس عندك من اللياقة والتهذيب ما يجعلك تبتعد؟.

ـ ماذا؟ تتخلين عني في الوقت الذي أكون فيه بأمس الحاجة إليك، ولأسباب تافهة ثم تقولين إنك آسفة.

كان آدم يصرخ بصوت كاد يصيبها بالصمم مما جعلها تبعد السماعة قليلاً عن أذنها.

وفي لحظة خطفت السماعة من يدها وفغرت فاها من المفاجأة وهي تنظر إلى وجه سايمون العابس.

ـ هذا يكفي.

صاح في السماعة فيما كانت جولييت تحاول جاهدة استرجاعها منه:

ـ أنا لن أسمح لأي رجل أن يصرخ على زوجتي في الهاتف. اتركنا!

سمعت صوت آدم المذهول في ردة فعله على سماع صوت رجل غاضب. ثم خبط سايمون السماعة وقطع المكالمة.

ـ أنت...

تأتأت جولييت ولم تستطع الكلام من شدة الغضب: «أنت...».

حدق سايمون إليها، من دون أن يحرك جسمه الطويل والنحيل ولكن العبوس غطى محياه.

ـ حسناً، من يكون هذا الرجل؟.

ردت عليه جولييت وهي ترتجف من الامتعاض.

ـ لا تملك أي حق للتصرف هكذا.

رد عليها سايمون حانقاً وبعينين باردتين:

ـ هل يملك الحق بالصراخ عليك في الهاتف؟.

ـ لو أردت قطع المكالمة معه، لفعلت ذلك!

ـ إذاً لماذا لم تفعلي؟ هل هو عشيقك؟.

ازداد الاحمرار على وجهها، ولكنها واجهت نظرة الازدراء بقولها: «إذا كان عشيقي فهذا شأني وليس شأنك!».

لمع العنف في عينيه الرماديتين، وأمسك بكتفيها، وأخذ يهزها بعنف:

«هل هو عشيقك؟ اخبريني، فلتنزل اللعنة عليك!».

ـ لن أخبرك بأي شيء!

لاحت نبرة التهديد في صوته: «بلى، سوف تخبرينني!».

ولكنها تابعت تحديها له وشمخت برأسها والعناد يملأ عينيها الزرقاوين.

ـ لا شيء سيكرهني على ذلك!

لا شيء؟ ردد وراءها وقد تقلصت عضلاته. وأحست برعشة ذعر تسري في عروقها بسبب ما ظهر على وجهه القاسي من تعابير.

بدأ بسحبها نحوه وهي عاجزة عن المقاومة لأن قوتها البدنية لا تضاهي قوته. ولكن جرس الهاتف أخذ يرن ثانية فشتم بصوت خافت وامتدت احدى يديه فوراً لتخطف السماعة.

أجاب بضيق: «نعم».

صرخت به جولييت: «أعطني السماعة».

وحاولت جاهدة أن تأخذها منه ولكن سايمون غيّر موقعه، وأبعد رأسه عن مرمى يدها.

سمعت آدم يسأل بصوت مرتفع: «من أنت؟».

ـ أنا زوجها، ولا تتصل مرة ثانية، لأني سأخبط السماعة في وجهك.

أجابه سايمون بذلك وخبط السماعة ثانية قاطعاً على آدم غمغمته الغاضبة.

أرادت جولييت أن تضرب سايمون. كانت ترتعش من الغضب الشديد وتتمتم بخشونة: «كيف تتجرأ على ذلك؟ من تظن نفسك؟ أنت...».

كانت الكلمات تتراقص في عقلها ولم تستطع صياغتها في جمل صحيحة كاملة بسبب الغضب الذي أعماها. كانت تقذف الكلمات من دون ترابط وتحدق إليه بعينيها الملتهبتين.

ـ متسلط مغرور غير مهذب، تتدخل في ما لا يعنيك، خارج عن القانون... لقد أقحمت نفسك مجدداً في حياتي وبدأت تحاول أن تملي علي تصرفاتي! أنا لن أخضع لهذا الوضع.

صاح بها سايمون فجأة: «إخرسي!» وشدها نحوه بعنف، وكان جسمها الرقيق عاجزاً أمام قوة إمساكه بها.

عندما عانقها في وقت سابق عندما كانا يتمشيان على الأراضي المغطاة بالثلج، كان عناقه رقيقاً، أما الآن فيبدو قاسياً، غاضباً لا يضيره إذا سبّب لها الأذى ولهذا كانت تقاومه وتحاول الابتعاد عنه.

أفقدها الصراع توازنها وبدأت تقع، واستسلمت للسقوط على أمل الهرب منه ولكنه سقط معها، واستمر على تشبثه بها. حطا على الأريكة ثم تدحرجا على الأرض من دون أن تتوقف مقاومتها.

وجدت جولييت أنها مستلقية قربه وعيناها لا تبعدان أكثر من سنتميرات قليلة عن عينيه، استلقت في مكانها دون حراك وأصبح لون وجهها أصفر شاحباً وبشرة وجنتيها متقلصة، وكانت عيناها الزرقاوان مفتوحتين تحدقان إليه في خوف.

حدق بدوره إليها، وهو مستلقٍ مثلها دون حراك، ويتنفس بصعوبة. وفي هذا السكون المشحون سمعت دقات قلبه الشبيهة بطرقات المدنة ومن دون وعي منها بما تفعله وضعت يدها المرتعشة على صدره فأحست بخفقات قلبه تحت راحتها.

لوى فمه وقال: «أنت لا تستطيعين تمالك نفسك. أليس كذلك».

ـ أتمالك نفسي، عن ماذا؟

وكانت مشاعرها قد تحركت، فأحسّت بخفقات قلبه تنبض داخلها من خلال راحة يدها. كان سايمون مليئاً بالحياة وبالنشاط. ولم يكن باستطاعتها أن تتخيل أن هذا القلب سيتوقف في يوم ما. الرجل الذي يخفق قلبه هكذا يجب أن يعيش إلى الأبد. فكرت بذلك وابتسمت.

انهمها فخطفت يدها عنه: «تمالكي نفسك عن مغازلتي وإثارتي».

ـ لم أكن أفعل ذلك!

ـ ماذا كنت تفعلين إذاً؟

أمسك يدها وأعادها إلى حيث كانت على صدره وشد عليها وهو يحدق في عينيها.

ـ أي شيء يمكن أن يكون هذا غير الإثارة المتعمدة؟ لقد تحرشت بي بمحض إرادتك. لا تحاولي الإنكار. وهذا تماماً ما حدث بيننا في بداية الأمر وأنت تعرفين. في ذلك الصيف لم أكن أنا من لاحقك بل أنت من لا حقتني.

غضت البصر وعضت على شفتها لأنها لا تستطيع إنكار ذلك. وفي الحقيقة، لم يكن سايمون البادىء في ملاحقتها، ففي وقت ما وجد حبها له مسلياً، وكان متسامحاً معها لأنه كان يعتبرها طفلة، وتركها تلتصق به أينما ذهب للتنزه أو السباحة أو لعب التنس لكنه لم يظهر في تصرفاته أي اهتمام بها. كان يتصرف معها كشقيق أكبر ودود ومحب، ولم يكن هذا ما ترغب فيه على الإطلاق، وشعرت أن كبرياءها قد طعنت.

كانت في السابعة عشرة من عمرها. ولكنها كانت تعتبر نفسها امرأة، وكانت أمواج الرغبات التي يعرفها البالغون تتحرك في كيانها، الأمر الذي أربكها وجعلها غير واثقة من نفسها.

كانت تتصرف وتنفعل من دون أن تعرف ماذا تفعل، وكان كل شيء يصدر عنها عفوياً وغرائزياً.

اوه، طبعاً، لقد غازلته وأثارته، ولكن كان ذلك تلاعباً مثلما تلاعب القطة طابة صوف وتجعلها ضحيتها الأولى. غلطتها الحقيقية، وحماقتها الأولى كانت في اختيار شخص ليس من عمرها للدخول معه في تجارب عاطفية. لو اختارت فتى في السابعة عشرة من عمره لكانت العلاقة حباً صيفياً ممتعاً ينتهي بسلام عند حلول الخريف. حباً تستطيع استرجاع ذكرياته ببهجة طوال حياتها.

ولكنها لم تكن تنجذب إلى أترابها من الفتيان ربما لأنها كانت دائماً معجبة جداً بسايمون... من كان يخمن؟ ولم تعرف إلا ما كانت تشعر به في ذلك الصيف، الشوق الجامح والملتهب.

وهكذا دفعته للنظر إليها من كافة النواحي. دفعته لينظر إليها كامراة. وزودتها أهواؤها بالدهاء وعلمتها أساليب النساء. اشترت بعض الملابس الجديدة التي غيرت مظهرها برمته، وأبرزت أنوثتها بصورة فجائية.

وكانت أهم أسلحتها الأنثوية، تسبيل عينيها وجعله يشعر أنهما تلتهبان حباً به. بعد فترة توقف عن اعتبار الأمر مسلياً وبدأ يبادلها النظرات بالأسلوب ذاته وهذا ما جعل الرعشة تسري في جسدها كلّه.

قال لها: «اعترفي يا جولييت».

فتنهدت بعمق.

ـ تريد مني أن أقول إنني آسفة؟ أنا آسفة، ولكن هذا لن يغير شيئاً، أليس كذلك؟ حسناً، لقد كنت مغرمة بك، وغازلتك وكل ذلك انتهى بصورة سيئة. ولكن لم أكن أدري ما الذي أفعله، كما أن وقت طويل قد مضى على ذلك. كان يجب أن تطلقني منذ سنوات وتتزوج ثانية، فلربما امتنع والدك عن كتابة هذه الوصية السخيفة.

كانت نبرة صوته كصفعة وجّهها إليها: «ولكنه فعل، ونحن لسنا مطلقين. فما زلنا متزوجين، وأنت ستنجبين لي ولداً كي يرث أملاك شانتري».

ارتعدت وفتحت عينيها الزرقاوين ثانية.

ـ لا، لن أفعل ذلك!

تمعّن في فمها بعينيه الرماديتين القاسيتين اللتين ظهر عليهما الإصرار: «بلى، ستفعلين».

أكد لها ذلك وقرب رأسه من رأسها.

همست «لا»، وهي تحدق إليه مرتجفة. كانت خطوطه القاسية تأسرها

دائماً . ولكنه كان متمالكاً نفسه ويتحكم تماماً بأهوائه. أصبح على مقربة شديدة منها وارتفع صوت خفقات قلبها.

وفي اللحظة ذاتها بدأ رنين الهاتف ثانية، وأخذ سايمون يشتم بصوت مرتفع. رفع رأسه وعلى وجهه الانزعاج الشديد.

ـ هو ثانية! ألا يعرف متى يجب أن يتوقف؟

ضحكت ضحكة هستيرية: «لا، آدم لا يجيد الإستسلام. إنه يفضل الفوز».

تلقت على كلامها نظرة قاسية وعابسة مقطبة.

ـ حسناً، هذه المرة سأجبره على التراجع ومن الأفضل له أن يعتاد ذلك.

استمر رنين الهاتف دون انقطاع مثيراً أعصابهما أكثر فأكثر. قالت جولييت: «يجب أن نجيب» فنهض سايمون غاضباً واتجه نحو الهاتف.

بدأ الكلام فيما كانت جولييت تنهض على قدميها.

ـ اسمع، أنت...

ثم توقف عن الكلام ولوى فمه قبل أن يمد يده لها لإعطائها سماعة الهاتف.

تنبهت فوراً فتأوهت وهرعت لتأخذ السماعة من يده.

ـ إنها أمك.

ولم تكن بحاجة ليخبرها لأنها عرفت ذلك من تبدل تعابير وجهه.

أجابت بصوت مبحوح: «آلو، ماما».

وكادت تبعد السماعة عن أذنيها، لأن شيرلي مندللي بدأت تمطرها بأسئلة مزعجة من دون أن تترك مجالاً للإجابة، وراحت تطرح السؤال تلو الآخر.

ـ من الذي أجاب على الهاتف؟ ماذا يجري عندك؟ هل من مشكلة؟ لماذا يوجد معك رجل في الكوخ؟ إنه ليس آدم فأنا أعرف صوته، ولكن هذا الرجل مختلف تماماً، إنه لئيم. ومن طريقة صياحه بي الآن يبدو خطراً...

من هو؟ ولماذا هو الذي أجاب بهذا الأسلوب؟ جولي، هل أنت على ما يرام؟ هل تريدين أن أتصل بالشرطة أو...

قاطعتها جولييت بصوت مرتفع: «ماما، ماما».

أخيراً توقفت شيرلي عن الكلام. فقالت جولييت، وهي تتنهد: «سايمون هو الذي أجاب...».

رددت أمها «سايمون»؟ بعفوية أولاً ثم بذهول.

ـ سايمون؟ هل تقصدين سايمون جيرار؟ ابن روبرت؟.

ـ نعم...

ـ بحق الله، ماذا يفعل عندك؟ لم أسمع أي شيء عن هذه العائلة منذ سنوات، لم أكن أعرف أنك على اتصال بهم. ولم تذكري ذلك قط. أنا لم احبه كثيراً فقد كان فتى مغروراً... ولا أعتقد أنه تغير.

أقرت لأمها بحذر وهي تلقي على سايمون نظرة جانبية: «ليس كثيراً. لقد جاءني بأخبار محزنة يا أمي».

تبدل صوت شيرلي وأصبح أكثر حدة: «والدك؟».

قالت جولييت بسرعة: «لا، والده، لقد توفي منذ بضعة أسابيع».

ـ اوه، أنا آسفة لذلك، كان روبرت رجلاً لطيفاً.

ـ ما سبب اتصالك يا أمي؟ هل لديك مشاكل؟ كيف حال جورجيو؟.

ـ كل شيء على ما يرام، لم يعد هنالك من مشاكل لكنني اتصلت بلندن منذ لحظات وسمعت عن سوء الطقس في كورنوول فقلقت عليك. هل كان تساقط الثلج عندك كثيفاً؟ هل ستتمكنين من العودة إلى لندن اليوم؟ إسمعي لا أريد منك أن تقتلي نفسك وأنت تحاولين قيادة السيارة على الطرق المجلدة، من أجل العودة إلى العمل يا حبيبتي.

ـ لن أستطيع حتى لو أردت. فكل الطرق مقطوعة تماماً في الوقت الحاضر ونحن نأمل أن تتمكن كاسحات الثلج من فتح الطرق الرئيسية. ولكن إن لم يتغير الطقس خلال الليل، فلن أتمكن من الرجوع إلى لندن قبل

فترة، سوف اتصل بالمكتب في الصباح واخبر هيلين أن تتولى زمام الأمور.

- ليس بإمكان سكرتيرتك إدارة العمل. على أي حال، يبدو أن من الأفضل أن أعود إلى لندن.

- انتظري حتى صباح الغد ثم اتصلي بي ثانية يا أمي. إذا كان باستطاعتي العودة إلى لندن بأي طريقة، من دون أن اقتل نفسي، فأعدك يا أمي بأني سأفعل. إبقي في ايطاليا مع جورجيو. كيف حاله الآن؟

تنهدت شيرلي وقالت: «لقد هدأ حبيبي المسكين، الحمدلله. ولكن ألا تعتقدين يا جولي أن علي أن أعود..؟

- لا، أعتقد أن مكانك الآن مع جورجيو. وعلى أي حال ليس هنالك من أمور مستعجلة في الأيام القادمة، وباستطاعة هيلين القيام بأعباء العمل، وأنا متأكدة أنني سأتمكن غداً من العودة إلى لندن بطريقة ما. وقد أستقل القطار عوضاً عن قيادة السيارة.

سألتها شيرلي فجأة: «ولكن لماذا قطع سايمون جيرار كل هذه المسافة؟ أليخبرك أن أباه قد توفي، يا حبيبتي؟ ولماذا كان لئيماً عندما أجاب على الهاتف الآن؟ فقد أخافني حتى الموت... لقد ظننت للوهلة الأولى أني طلبت رقماً خاطئاً».

- حسناً لقد تلقينا بضع مكالمات سخيفة. أنت تعرفين هذا النوع من المكالمات البذيئة.

تنهدت شيرلي بصوت مسموع: «اوه، إن هذا لمخيف! أنا آسفة يا حبيبتي، ولكن لحسن حظك أن سايمون معك هذا الصباح واستطاع الرد على الهاتف بدلاً عنك! فعندما يعلمون بوجود رجل هناك، يتوقفون عن ذلك! هل اتصلتم بالشرطة؟ يجب أن تفعلي ذلك يا جولي، فقد يكون المتصل رجلاً خطراً».

- حسناً، يا أمي.

- ولكنك لم توضحي لي لماذا قطع سايمون كل هذه المسافة، على أي

حال؟

تذكرت شيرلي شيئاً فأضافت: «هل تذكرك العجوز في وصيته؟ هل ستصبحين امرأة غنية جداً؟».

- أخشى ألاّ يكون الأمر هكذا، لا شيء مهم. ولكن ذكري جاء في الوصية ولهذا جاء سايمون. إنه مجرد أمر يريد مني روبرت القيام به. سأخبرك التفاصيل لاحقاً. لا بد أن هذه المخابرة كلفتك ثروة. اتصلي بي دائماً يا أمي وبلغي تحياتي إلى جورجيو.

- مع السلامة، يا حبيبتي.

بعدماأقفلت جوليا السماعة، استدارت لتواجه سايمون الذي كان يراقبها بتهكم واضح:

- إذاً، لم تكن عندك الشجاعة لتخبريها الحقيقة. هل تعلم أننا متزوجان؟

رفعت ذقنها متحدية وقالت: «لا، والأفضل ألا تعرف أبداً. ولا أريد أن يعرف أحد. ما أريده هو أن تطلقني...».

- بعد أن تنجبي لي طفلاً.

قال ذلك وقد بان على وجهه الإصرار وعدم الهوادة.

***

٥ ـ في اللحظة الأخيرة . . .

وقفت جولييت في مكانها وهي تنظر إلى سايمون ببلاهة وتتساءل في نفسها عما يمكن أن تفعله كي تفهمه أنها لن تستطيع تلبية طلبه، فهذا أمر مستحيل، مجرد التفكير فيه يصيبها بالقشعريرة، في الوقت ذاته كان سايمون يراقبها وقد خلا وجهه من أي تعابير.

ثم تغيرت ملامح وجهه وتنهد.

ـ القهوة! لقد أطفأت النار تحتها بعد أن ملأت كوبين.

كانت هي أيضاً قد نسيت القهوة. وهرع كلاهما إلى المطبخ ولكن القهوة بردت ولم يتبق ما يكفي منها في الوعاء لملء كوبين آخرين.

قالت جولييت: «سأحضر المزيد من القهوة».

ولكن سايمون هز رأسه رافضاً وهو يشير إلى ساعة المطبخ.

ـ سأكتفي بكوب نسكافة فورية، فأنا أستطيب مذاقها، خاصة وأن موعد تناول طعام الغذاء قد حان!

ملأ ركوة نحاسية بالماء ووضعها على الموقد وعثر على علبة نسكافة في خزانة المطبخ.

ـ ماذا سنأكل؟

فكرت بصوت مرتفع، وهي تفتش الخزائن والثلاجة. ماوجدته جعل خياراتها محدودة. وعليها الإكتفاء بالمعلبات.

ـ ما رأيك بالأرز أو السباغتي مع صلصة البندورة؟

هز كتفيه لا مبالياً.

ـ جيد بالنسبة لي، ما يزال لدي بعض الفطر أيضاً، وقد اشتريت بصلاً.

ـ إذاً، هيا إلى العمل.

بدأت بطبخ الطعام فيما كان سايمون يسكب القهوة في كوبه ويجلس إلى الطاولة ليشربها وبدا أنه سيراقبها وهي تطبخ. لكن جولييت طلبت منه بلطف:

ـ أيمكنك أن تقطع البصل، أو أن ذلك سيجعلك تبكي؟

قال لها ضاحكاً: «لا شيء يمكنه أن يبكيني».

فقالت في نفسها، إن هذا لصحيح! ومن معرفتها به كان يبدو لها أنه رجل لا يُخترق ولا ينفذ إليه شيء.

أعطته سكين المطبخ وبصلة كبيرة ثم أخذت تبحث عن مقلاة لتطبخ فيها الصلصة، بعد أن وضعت على الموقد وعاء ماء وتركته ليغلي.

عندما استدارت شاهدت سايمون قد بدأ بتقطيع البصل بحركات سريعة ومتمرسة.

ـ يبدو أنك معتاد على تقطيع البصل.

أومأ برأسه من دون أن ينظر إليها، مركزاً انتباهه على ما يقوم به.

ـ أنا أحضر طعامي بنفسي، مع أن لدي خادمة. أكتفي، في الغالب، بالوجبات البسيطة والمفضل عندي الطعام المشوي في الفرن طوال النهار لينضج خلال وجودي خارج المنزل. حساء، أو ستيك، واحياناً السمك. كما أخبز البطاطا في الفرن وأحضر السلطات.

مازحته: «يا إلهي، أنت طباخ الموسم».

ورد عليها ضاحكاً: «كنت قد اعتدت في الماضي على الخروج لتناول الطعام. ولكن ذلك أصبح مضجراً بعد حين. كما أن الإتيان بامرأة لتطبخ لرجل، يجعلها تطمع بأشياء أخرى».

انتهى من تقطيع البصل، وشاهدت كومة صغيرة مرتبة من البصل

المقطع على اللوح الخشبي. استدار إليها وسألها: «ماذا فعلت بالفطر؟».

ـ سوف أغسلها وأقطعها أنصافاً.

تساءلت في نفسها، كم من النساء عرضن عليه أن يطبخن له خلال السنوات الثمانية الماضية. سايمون رجل جذاب جداً، لا شك في ذلك. كما لا شك في أن النساء حمن حول «هذا الطبق من العسل». أحست بطعنة خفيفة بين ضلوعها من الصور التي بدأت ترتسم في خيالها. قالت في نفسها بحدة، إن ذلك ليس من شأنها، فهي لم تعد مراهقة غارقة في الحب. إنها الآن امرأة ناضجة وعاقلة وحياة سايمون جيرار العاطفية أمر يخصه فقط.

بدأ الماء بالغليان فوضعت السباغتي فيه وحولت كامل انتباهها إلى الصلصة. حضر سايمون الطاولة وفتح خزائن المطبخ وأخذ يبحث في محتوياتها.

انصبّ اهتمام جولييت على الانتهاء من طبخ الصلصة وفاحت في أرجاء المطبخ رائحة البصل والبندورة الزكية، ثم صفّت السباغتي من الماء وقسمتها على الطبقين الموضوعين أمامها وأضافت الصلصة فوقها.

راقبت سايمون من طرف عينيها وهو يأكل طبقه بشهية.

قال وهو يمضغ آخر لقمة من طعامه: «وجبة لذيذة. أنت طباخة ماهرة».

أنكرت على نفسها هذا المديح:

ـ يستطيع أي شخص أن يطبخ السباغتي.

ـ إذاً يجب أن تعلميني كيفية طبخها.

نهض من مكانه وأخذ يلملم الأطباق عن الطاولة. ووضع يده على كتفيها ليمنعها عن النهوض: «لا، أنا سأحضر القهوة. إبقي مكانك».

استرخت على مقعدها وهي تبتسم.. وراحت تراقبه وهو يقوم بمهمته. كان يتحرك بخفة ونظام، وشعرت بالقشعريرة تسري في ظهرها فقد تبين لها من تحركاته أنه رجل منظم جداً، يخطط للأمور قبل تنفيذها،

وشعرت بالخوف من تلك العقلانية الرهيبة.

اقترح عليها: «هل نشرب القهوة في غرفة الجلوس؟ إنها مريحة أكثر».

وقبل أن تتمكن من الاعتراض حمل صينية القهوة وخرج بها من المطبخ ولم يترك مجالاً لها غير اللحاق به.

وضع الصينية على طاولة القهوة. وأشار إليها بالجلوس على الأريكة، ولأنها لا تثق به، فضلت أن تجلس على مقعد منفرد.

ابتسم لها هازئاً وكأنه يعلق على خوفها منه من دون أن يتكلم ثم جلس على الأريكة وقال لها:

ـ اسكبي لي القهوة من فضلك!.

ترددت وهي تعض على شفتها، لأن عليها أن تنهض ثانية عن مقعدها وتقترب منه. وبما أنه لم يكن بمستطاعها أن ترفض مطلبه انصاعت وسكبت القهوة في الفنجانين، وعرضت عليه اضافة السكر والحليب وقدمت له فنجاناً قبل أن تتناول قهوتها.

أمسك بيدها الأخرى فيما كانت تستقيم من انحنائها، وقال: «اجلسي إلى جانبي».

رمقته باستهزاء وهزت رأسها رافضة وقالت له بفظاظة: «أشعر بالأمان أكثر هناك».

ضحك وأجابها: «هل أضايقك بهذا القدر؟».

دفع ما يبطن كلامه الناعس الدم إلى وجنتيها، لأن ما قاله كان صحيحاً. إنه فعلاً يضايقها.

انفجرت غاضبة:

ـ أنت لا تضايقني أبداً.

ـ إذاً، لماذا تخافين من الجلوس إلى جانبي؟

أجابته بامتعاض: «لم أنس بعد كيف تصرفت معي منذ ساعة، أنت تعرف ذلك».

رد لها الإهانة: «لا تنسي أنك أثرتني».

ولكنه أفلت يدها، وعادت بسرعة لتجلس على مقعدها.

شرب سايمون جرعة من قهوته، وعيناه تتأملانها، وشربت هي أيضاً جرعة قهوة وهي تشعر بالتوتر. ما الذي يدور في ذهنه الآن؟ لماذا يتأملني بهذه الطريقة؟

ـ هيا أخبريني عن هذا الذي اسمه آدم.

قال ذلك فجأة فجفلت وكاد كوب القهوة يقع من يدها وانسكبت القهوة الساخنة على يدها فأطلقت صرخة حادة ثم وضعت كوب القهوة على الأرض وفركت يدها التي بان عليها الاحمرار.

سألها سايمون متذمراً وهو يراقبها: «ماذا فعلت بنفسك الآن؟ هل أحرقت يدك؟».

ـ لا شيء. أنا بخير الآن، لقد أجفلتني بصراخك المفاجيء وانتفاضتك علي.

رد عليها وهو يمط كلامه:

ـ لم أصرخ بك. كل ما فعلته هو أني طرحت عليك سؤالاً بسيطاً. ونظراً إلى ردة فعلك على هذا السؤال والتعابير التي بانت على وجهك، أعتقد أنني حصلت على الجواب الذي أبحث عنه. إنه عشيقك، أليس كذلك؟

كانت خائفة من إعطائه جواباً، لأنه إذا اعتقد أن آدم عشيقها، فذلك قد يردعه عنها، وسيغير رأيه إذا عرف أنها مرتبطة برجل آخر. وهي على أي حال تحتاج إلى ما يحميها منه ويردعه عنها، لأنها لا تستطيع الوثوق بنفسها. فلم يمضِ على وجودهما معاً وبمفردهما في هذا المكان أكثر من اثنتي عشر ساعة، وها هي تشعر بالضعف تجاهه وهذا أقل ما يقال. يبدو أنها تفقد صوابها. فيكفي أن يقترب منها حتى يلتهب كيانها بمشاعر جامحة تثير الرعب في قلبها.

إن الأمر أشبه بتفاعل كيمائي، أو انجذاب غرائزي قاهر إلى جسده

ولكن ليس إلى الرجل ذاته، سايمون جيرار الذي تكرهه. ولكن لسوء الحظ يبدو أن جسدها الغبي لا ذاكرة له.

قالت له وهي تخفض عينيها ويبدو العناد في كل ملامحها: «أرفض أن أبحث معك مسائل حياتي الخاصة».

رد عليها بمكر:

ـ أنت تعترفين إذاً أن آدم هو حياتك الخاصة؟ كم مضى من الوقت على علاقتك به؟.

ـ لقد تعرفت إليه منذ سنة.

ـ هل يعمل لدى سلسلة مخازن بيع الأحذية التي تمتلكها أمك؟ هل يطمح إلى الزواج بعائلة ثرية والسيطرة يوماً ما على أعمالها؟

كانت نبرة صوته باردة متهكمة، ورفضت أن تتقبل ما يقوله عن آدم.

ـ لا. إنه مدير إداري كبير في شركة أخرى، شركة أكبر بكثير من المؤسسة التي تملكها أمي وجورجيو. وكل طموحات آدم مرتبطة بالشركة التي يعمل بها. هو غير مهتم لا بالأحذية ولا ببيعها، إنه من النوع الذي يفضل العمل في الشركات العالمية العملاقة، والسفر بالطائرة من مدينة إلى أخرى، وحضور الاجتماعات والمؤتمرات المهمة و...

توقفت بعد أن أدركت فجأة، أن الصورة التي رسمتها عن آدم أعطت انطباعاً سيئاً عنه. ولاحظت أن السخرية ترشح من قسمات وجهه.

ـ يبدو من وصفك له أنه رجل جذاب.

تورد وجهها من الحنق: «في الواقع أنه رجل جميل الطلعة جداً!»

ـ جميل الطلعة، ولكنه ممل ومضجر.

تسلى بها سايمون وقبل أن يتسنى لها أن تصرخ به قائلة إن آدم ليس مضجراً، غيّر الموضوع وسألها:

ـ لدى أي شركة قلت لي إنه يعمل.

أخبرته بفظاظة، ولاحظت أنه لم يكن لذلك وقع في نفسه. لم يكن

سايمون رجل أعمال. وعالمه كله كان دائماً متمحوراً حول شانتري والزراعة، والعيش في الريف حيث نشأ. واهتماماته كانت اهتمامات الريفيين، ركوب الخيل واقتناء الكلاب وصيد الأسماك من النهر الذي يعبر أملاكه، وصيد الأرانب التي تسطو على حقول القمح التي يملكها.

سلوك رجل مثل آدم مختلف دائماً. فشخصية كل واحد منهما تبعد عن الأخرى سنوات ضوئية، فقد نشأ آدم في بيئة فقيرة وهو حتماً سينظر إلى سايمون على أنه ولد وفي فمه ملعقة من الفضة، وآدم يكره هذا النوع من الرجال الذين يقابل الكثير منهم كل يوم ويتنافس معهم في الشركة، وغالباً ما يخسر المنافسة بسبب تخرجهم من مدارس راقية وصلاتهم الوثيقة بأصحاب القرار. وغالباً ما سمعت آدم يتذمر بغضب من المحاباة المتبادلة بين الرجال الذي نشأوا في عائلات ثرية.

قال سايمون وكأنه يفكر بصوت مرتفع: «ليس هناك من شيء مشترك بيننا».

ـ لا أعتقد ذلك.

قال لها: «باستثنائك».

أضاف: «ولكن ليس لدي النية لمشاركته بك».

فغرت فاها ذاهلة: «لا أصدق أنك قلت ذلك!».

ـ نعم، قلت ذلك، وأنا أعنيه حرفياً. لن تقابليه ثانية.

ردت عليه بغضب شديد وهي تشعر أن وجهها يلتهب: «لا تملك أي حق على الاطلاق في إملاء الأوامر عليّ، وسأفعل ما أريد!».

ـ بل ستفعلين ما أريده أنا.

قال ذلك وهو يمط كلماته وعيناه الرماديتان تتأملانها ببطء متعمد، بدءاً بشعرها الكستنائي وصولاً إلى قدميها، هذا دون أن يغفل أي جزء من جسمها مما جعل قلبها يقفز إلى حلقها. شعرت كأنه لمسها فاهتزت وقفزت لتهرب وتبتعد بأسرع ما يمكن عن نظراته التي تعذبها.

توقعت أن يطاردها ولكنها لم تسمع وقع خطواته تلاحقها. وفيما كانت تجري في القاعة متجهة إلى الدرج والأمان الذي توفره لها غرفة نومها، لم تسمعه يأتي خلفها حتى وصلت إلى أعلى الدرج. عندما نظرت إلى الأسفل وشاهدته يصعد الدرج، سرت موجات الخوف في كيانها كله واندفعت لتعبر صحن الدرج فزلت قدمها وارتطمت بالحائط. كان سايمون قد أدركها عندما تمكنت من استعادة توازنها وشعرت أن قدميها ترتفعان عن الأرض فتشبثت به وهي تصرخ من الفزع.

ـ ماذا تفعل؟ أنزلني!

حملها إلى غرفة النوم الرئيسية فقاومته بضراوة ولكن دون فائدة. ركلته ودفعته عنها حتى وضعها على السرير المزدوج الملحف بالحرير. حاولت أن تزحف إلى الطرف الآخر من السرير ولكنه أمسك بها ثانية وهو يضحك وأطبق يديه على خصرها. تسلق على السرير بدوره وشل حركتها واجتاحها خوف فظيع.

ـ أنا أكرهك!

صرخت به، فضحك مرة أخرى.

قال بلطف: «فعلاً! هذا سيجعل الأمور أكثر متعة».

وشعرت أن قلبها سيقع بين قدميها من شدة الصدمة.

ـ توقف عن ذلك.

تمتمت وهي تحاول أن تبعد رأسه عن عنقها ولكن ملمس شعره بين اصابعها أثارها ورغبت في التلاعب بخصلاته وشعرت بحيويته تنساب من شعره إلى أصابعها فابتلعت لعابها بصعوبة وأبعدت يدها عنه. وقلبها يزداد خفقانه بفعل مزيج متفجر من المشاعر والغيظ.

فكرت بمرارة: «ماذا يحدث لي؟». ثم أحنى رأسه يعانقها. فأغمضت عينيها وتأوهت بحدة من المشاعر التي شعرت بها. رفعت يديها لتلامسه أيضاً.

أزاح رأسه عنها، ففتحت جولييت عينيها مكرهة وبهر النور عينيها. أما هو فاستمر يحدق في عينيها الزرقاوين الملتهبتين بالمشاعر، ثم انحنى إليها ثانية، وفي هذه المرة لم تحاول أن تتفادى عناقه أو تقاومه فعانقته، وأغمضت عينيها ثانية. هذا ما شعرت به تلك الليلة، في البستان، تحت أضواء النجوم قبل أن يمسك بهما والدها وتتفتح عليهما أبواب الجحيم.

لقد نسيت حتى الآن، كيف شعرت حينها، وكيف جمحت الأحاسيس في داخلها عندما كان سايمون يحتضنها بين ذراعيه.

تمتم بصوت مبحوح: «جولييت... أريدك... بكل كياني....».

وهي تعرف هذه الأعراض لأنها تماثل ما عندها. إنها تريده أكثر من أي شيء أرادته يوماً ولكنها غبية ولا تستطيع الإقرار بذلك لنفسها، لأنها في المرة السابقة عندما اعترفت بحبها كشفت له عن كل مكتوناتها الداخلية من دون تحفظ، وهي تعتقد أنه يكن لها المشاعر ذاتها. وكانت النتيجة تحطم أوصالها ليلة الزفاف.

لم يكن سايمون واقعاً في حبها، لقد ارتضى بضمها لأنها رمت نفسها عليه. ثم وجد نفسه عالقاً في فخ زواج لم يكن يريده. فحمّلها مسؤولية ما حدث وكان غاضباً جداً، ولكنها لم تكتشف ذلك حتى تزوجا وأصبحا بمفردهما في غرفة النوم فهناك انفجر غضبه وأرعبها حتى الموت.

لم تستطع أن تنسى الصدمة التي شعرت بها عندما اكتشفت ما وراء القناع الهادىء الذي تدثر به حتى ليلة زفافها. كان مستاءً جداً ويشعر بالمرارة الشديدة لأنه أُكره على الزواج بها. كان يجب أن تنتبه لهذا، ولكنها كانت تلميذة عمياء وبلهاء تحلم أن رجلاً مثل سايمون جيرار يرغب في الزواج بها.. على أي حال، لقد نضجت الآن وعركتها الحياة قليلاً، وأصبحت تعرف الكثير من مسالكها في الوقت الحاضر.

لدى سايمون أسباب وجيهة جداً لكي يسعى لإيقاعها في حبه وإفقادها صوابها، وقد يتصرف بطريقة شيطانية. كم من هذه الرغبات التي يظهرها

حقيقي؟ وكم منها ألغاز مبطنة، وكم منها مزيف، يظهرها فقط لإشباع مآربه والتأكد من أنها ستنجب له؟ تصلبت أوصالها وفتحت عينيها على وسعهما وحدقت إلى السقف وكأنها تشاهد صوراً عمّا حدث تلك الليلة منذ زمن بعيد، وعن ذلها وتعاستها.

هذه المرة، لن تجعل نفسها غبية وسايمون لن يكرر فعلته معها.

وضعت يديها على كتفيه ودفعت سايمون بعيداً عنها وفي الوقت ذاته تدحرجت إلى الجانب الآخر وقفزت عن السرير وحطت، بطريقة ما، على قدميها.

هروبها المفاجىء أخذ سايمون على غرة. وعندما تنبه إلى ما يحدث كانت جولييت تفر عبر الباب. وصلت إلى غرفة نومها قبل أن يدركها رغم أنها سمعته يركض بشدة للحاق بها. أغلقت الباب بالمفتاح واستندت إليه، مقطوعة الأنفاس، منهمرة الدموع.

ـ جولييت!

ناداها بخشونة ظاهرة، فقفزت مبتعدة عن الباب خشية أن يلمسها حتى من وراء الباب. حالما ابتعدت استدارت نحو الباب وحدقت إليه وهي تمسح دموعها. لقد أصبحت في أمان هنا. وهي ستستمر في أمان طالما هو ليس على مقربة منها، ولا تصل إليها يداه. باستطاعتها التفكير جيداً الآن. ألم تبكِ بما فيه الكفاية منذ ثماني سنوات؟

كرر مناداتها وهو يصيح: «جولييت!».

ـ كف عن الصراخ بي!

وتراجعت إلى سريرها وألقت بنفسها عليه.

ران الصمت عليهما لبضع لحظات تغيرت على أثره نبرة صوته. كانت وكأنها تسمع ما يفكر فيه عقله الملتوي وهو يعمل على وضع استراتيجية جديدة لمعالجة هذا الوضع الطارىء.

ـ لماذا هربت مني يا جولييت بصورة مفاجئة؟ هل أخفتك؟ إذا كنت قد

فعلت، فأنا لم أتعمد إخافتك.

ثم أضاف بصوت مبحوح مقترن بضحكة: «إنها غلطتك مرة ثانية».

زمت شفتيها وقالت في نفسها: «اهه ها... بالطبع... يجب أن يكون الغلط غلطي».

ـ فأنت تفقدينني صوابي وتحكّمي بنفسي في كل مرة نتلامس فيها.

أبت على هذا المديح أن يشل إرادتها ولكنها عجزت ألا تنفعل، رغم تأكدها من أنه يكذب عليها. فحتى هذه اللحظة كان يمثل عليها، وإن لم تحتط للأمر فسيغرر بها مرة أخرى، لأن مقاومتها كانت عرضة للخبو.. وهو يعرف ذلك.

قال لها بصوت رقيق يمكن أن يغشها لو لم تتذكر كيف خدعها في الماضي: «أنا أعتذر إن كنت أخفتك».

التقط أنفاسه ثم تابع بالنبرة اللطيفة ذاتها:

ـ بصراحة، افترضت أنك أكثر خبرة مما أنت عليه فعلاً. على أي حال، أنت لا تملكين هذه الخبرة، صح؟... من الصعب جداً على امرأة جميلة جداً مثلك أن تمضي ثماني سنوات في مدينة كبرى مثل لندن دون صحبة الرجال. ولا شك في أن عدداً منهم دخل حياتك. إن كان ذلك حدث، فأنا لا أعتقد أن أياً منهم استطاع الذهاب بعيداً في علاقته معك. هل أنا مخطىء؟

عكس صوته لطافة ولباقة أغاظتها، فشدت على أسنانها، وأرادت أن تكذب عليه وتقول له إنه أخطأ التقدير تماماً، ولكن ذلك قد يجعله أكثر تصميماً على معاشرتها. هل تكون عدم خبرتها الورقة الرابحة التي يجب أن تلعبها؟ إذا أخبرته الحقيقة وقالت له إنها لم تقم علاقة مع أي رجل منذ ليلة زفافهما، فماذا ستكون ردة فعله؟ تقلبت في فراشها قلقة ومضطربة ولمحت انعكاس صورتها في مرآة الخزانة ووجدت أن وجهها شاحب وعينيها زائغتان تنمان عن الضياع.

المشكلة، أن انجذابها إليه استمر رغم كل ما عرفته عنه. كانت هذه

المشاعر تتدفق في داخلها، كلما سمعت صوته أو رأته. يجب أن تطفىء هذه الأحاسيس، ولكن كيف؟

قال لها وقد تغيرت نبرة صوته: «هذا الرجل الذي اسمه آدم، على سبيل المثال، أخبريني بصراحة هل هو عشيقك؟».

عضت على شفتها، هل ترد عليه بالإيجاب؟ لا، الأفضل أن تبقى صامتة ولا تقول شيئاً، وتدعه يفكر على هواه.

انتظر سايمون ردها حتى فقد صبره: «إن كان عشيقك أم لا، فأنت لن تقابليه منذ الآن وصاعداً، يا جولييت!».

لم تستطع متابعة الصمت بعد ما قاله، ودفعها غضبها لترد عليه صياحاً:

ـ قلت لك ذلك مرة وسأكرره مرة أخرى: أنا امرأة بالغة وراشدة ولست طفلة ولست جزءاً من ممتلكاتك ولن أتلقى الأوامر منك أو أقبل أن تفرض عليّ من أستطيع أن أقابل ومن لا أستطيع.

تغيرت نبرة صوته وأصبحت أكثر تملقاً ومداراة: «أخرجتك عن الصمت، على الأقل... جولييتا إفتحي الباب، لا يمكننا الاستمرار بتبادل الحديث عبره! إن كنت تعتبرين نفسك امرأة راشدة، فتصرفي على هذا الأساس!

ردت عليه موبخة: «وأوفر لك فرصة أخرى لتتحرش بي؟ لن يحصل ذلك في حياتك. فأنا بأمان أكثر والباب يفصل بيننا».

استطاعت أن تلتقط ذبذبات انفعالاته، حتى من خلال الباب. وعرفت أنه يكظم غيظه ويصر على أسنانه.

ـ لا بأس بذلك ما دمت تدركين أنك لن تقابلي صديقك مرة أخرى. ويجب أن تتفهمي السبب. فأنا لن أجازف بخسارة أملاك ومزارع شانتري بسبب علامة استفهام ما تتعلق بأبوة ولدنا. ولهذا يجب أن يخرج من الصورة أي رجل آخر حتى تنجبي وريثي.

ـ لن أنصت إلى مثل هذا الهراء!

تابع سايمون كلامه بالهدوء نفسه وكأنها لم تقل شيئاً: «وللتأكد من ذلك سأصحبك معي إلى شانتري حالما يذوب الثلج».

ـ لن أفعل شيئاً من هذا القبيل!

قال وكأن الأمر حتمي:

ـ يجب أن تقيمي معي حتى ولادة الطفل.

«لا!» أخذ اليأس يستولي عليها الآن. إنه يرفض بعناد معاملتها بجد.

تمتم بنبرته الرقيقة الخادعة:

ـ لم يكن من الضروري أن تخافي مني يا جولييت. فأنا لن أغصبك على شيء، فلدينا الكثير من الوقت لنعتاد على بعضنا ثانية.

لم يكن رقيقاً معها ليلة زفافهما، فما الذي تغيّر كي يكون الأمر مختلفاً هذه المرة؟

قال لها بحدة بعد مرور لحظات:

ـ جولييت! هل تسمعينني؟ جولييت، لا نستطيع التباحث بهذا الشكل. أريد رؤية وجهك افتحي الباب. وأعدك ألا أتحرش بك.

قالت بتذمر: «اذهب عني! لا شك أنك مجنون لتقترح هذا، قد تكون أعصابك باردة ولكن أعصابي لا. فليس باستطاعتي تحمل ملامساتك لي وأؤكد لك أني لن أنجب طفلك، ولن أعود معك. فمن جهة، أنا أحب عملي ولن أتخلى عنه. ومن جهة اخرى، أنا لا أرغب على الإطلاق برؤية شانتري مجدداً لذلك ابتعد عني ودعني وشأني.

كان غضبها قد بلغ أشدّه وبح صوتها من الصراخ. التقطت كتاباً موضوعاً على الطاولة المجاورة للسرير ورمت به على الباب. جلبت لها هذه الحركة العنيفة بعض الراحة فتراخت وتنفست عميقاً.

قال سايمون: «أنت تهدفين بدقة».

صرخت به: «لا تتملقني! أنا حانقة جداً، وهذا ما أنا عليه! واسباب

ذلك وجيهة!»

طيّب خاطرها: «استلقي وخذي قسطاً من الراحة».

وهذا ما جعلها تغتاظ أكثر:

ـ سوف نتابع حديثنا لاحقاً، عندما تهدأ أعصابك.

ـ لن أغير رأيي وليس عندي ما أضيفه.

ولكنه هذه المرة، لم يكلف نفسه عناء الرد عليها، ثم سمعته ينزل الدرج ويعود أدراجه إلى غرفة الجلوس ويغلق عليه بابها بهدوء.

ألقت جوليا بطولها على السرير وحدقت إلى السقف وحاولت التفكير بصفاء ذهن. ولكن عوضاً عن ذلك تاهت في أحلام يقظة عن سايمون. ظلت صورته تراود ذهنها، يبتسم لها، يسخر منها، يضمها، يداعبها. حاولت أن تطرد هذه الصور الغبية من مخيلتها واستبدالها بلحظات أخرى مع سايمون، لحظات كان فيها ينظر إليها بعدائية واضحة، أو يصرخ بها ويهددها، ولكن من دون فائدة. ولم تستطع أن تتذكر إلا ما هي ترغب بتذكره في سرها. كان قلبها يرتعش بين جنبيها، واحتقرت نفسها لأنها ضعيفة أمامه.

أغمضت عينيها، وقالت في نفسها: فكري في أمور أخرى. العمل، فكري في أمور العمل. كم من الوقت ستستغرق إزالة الثلج عن الطرقات كي تستطيع العودة إلى لندن؟ كان يوماً مضطرباً ومزعجاً، سبّب لها الإرهاق جسدياً ونفسياً، فأخلدت إلى النوم بعد فترة قصيرة، واستيقظت لتكتشف أن الظلام عمّ الغرفة.

عندما أضاءت النور تذكرت كل ما حدث معها، فجلست وهي تلهث قليلاً. استدارت ونظرت إلى الساعة، ودهشت عندما رأت أن الوقت تجاوز الساعة السابعة مساءً.

انسلت عن السرير ومشت إلى النافذة لتنظر إلى الأراضي البور. كان النور في الخارج أشد من النور الذي يضيء الغرفة لأن النجوم كانت تتلألأ في

السماء الزرقاء الصافية. انخفضت حرارة الطقس ثانية ولكن الثلج لم يبد مرتفعاً كما في الصباح. استطلعت الأمر وهي مقطبة الجبين. هل هي تتخيل أم أن الثلج بدأ بالذوبان فعلاً؟

انكبّت على حافة النافذة لبضع دقائق وأخذت تحدق إلى الخارج ولم تستطع أن تتأكد اذا كان ذوبان الثلج قد بدأ أم لا.

بدا وكأن عدة أيام انقضت على وجودها في هذا الكوخ رغم أنه لم تمض سوى أربعة وعشرين ساعة على وصولها. ستكون مسرورة عندما تعود إلى لندن.

تنهدت وأغلقت ستائر النافذة ثم أضاءت النور في الغرفة قبل أن تدخل الحمام لتأخذ دوشاً.

غطى صوت انسياب المياه على جسمها كل ما عداه من الأصوات. عندما انتهت من الاستحمام، أقفلت الحنفية وارتدت ثوب الحمام الأبيض القصير ولفت رأسها بمنشفة وجففت قدميها قبل أن تعود إلى غرفة النوم.

كانت تعبر فوق السجادة عندما سمعت صوت محرك سيارة.

تجمدت مفاصلها وشعرت بهبوط في قلبها، وللحظة ظنت أنها تتخيل ما سمعته ولكنها أدركت أنه ليس خيالاً، فهرعت إلى النافذة وشاهدت مصابيح السيارة الأمامية تضيء الممر وتكشف عن سيارة اللاندروفر السوداء وهي تقترب ببطء.

من يكون هذا بحق الله؟ تساءلت وهي تمعن النظر في السيارة. أيكون أحد المزارعين المحليين الذي جاء ليتفقدها؟ أم هو أحد أصدقاء أمها الذي لاحظ الكوخ مضاءً؟

ثم فُتح باب السائق وترجل شخص منها واستدار حول نفسه ليحدق إلى الكوخ. تنفست جولييت بصعوبة وهي لا تكاد تصدق ما تراه عيناها.

فالشخص القادم، هو آدم.

* * *

٦ ـ مسيرة الألم

أذهلتها المفاجأة وأعجزتها عن التفكير عدة ثوانٍ. ثم تسارعت أفكارها بجنون، فسايمون في الأسفل وهو من سيفتح الباب الخارجي بعد أن يقرع آدم الجرس. كرهت التفكير في ما قد يحدث بينهما. كان آدم يتقدم نحو الكوخ بخطوات واثقة والعداء بادٍ على محياه. كان واضحاً أنه وسايمون سيتصادمان. ورغم أنها تود أن تتمتع بمشاهدة آدم يطرح سايمون أرضاً، إلا أنها لم تكن متفائلة حيال الأمر. وعلى الأرجح، ستكون نتيجة العراك بين الرجلين، أن سايمون سيبرّح آدم ضرباً، ولهذا يجب أن تمنع حدوث صدام بينهما.

لم تضيّع الوقت في ارتداء أي ملابسها. فهرعت كما هي تنزل الدرج، كل درجتين معاً، ولكن الآوان فات عن منع سايمون من فتح الباب والنظر إلى آدم بعدم ارتياح.

ـ إذا كنت تبحث عن السيدة منديللي، فهي ليست هنا.

أجابه آدم بنبرة جافة مماثلة: «أعرف ذلك».

كان يحدق إلى سايمون ببرودة عندما وصلت جولييت إليهما. استدار نحوها وتمعنت نظراته فيها صعوداً ونزولاً، من شعرها المبلل إلى ساقيها العاريتين وقدميها، ولم يفته التمعن بروب الحمام القصير الذي ستر ما بقي من جسمها. تصلب فمه:

ـ إذاً، ها أنت هنا يا جولييت.

رنا سايمون إليها بطرف عينيه وقطب حاجبيه بشدة.

صاح بها: «اصعدي إلى غرفتك وارتدي ملابسك».

نظرت إليه بغضب وردت: «عد إلى غرفة الجلوس، من فضلك. واهتم بشؤونك الخاصة! هذا الرجل صديقي».

قال سايمون بتشدق: «قد عرفت ذلك».

ورمق آدم بنظرة ازدراء: «وأنت لن تتكلمي معه وأنت نصف عارية، فانصرفي وضعي عليك بعض الملابس!».

تدخل آدم موبخاً: «توقف عن إعطائها الأوامر!».

خطا خطوة إلى الأمام، وكان واضحاً أن في نيته استخدام القوة لإزاحة سايمون من طريقه.

ضحك سايمون فتشنجت أعصاب جولييت على صوت هذه الضحكة، لأنها تعرف ما الذي سيحدث بعدها، وكانت على حق. دفع سايمون آدم بكامل قوته وأوقعه على مؤخرته، فسقط لحسن الحظ على دغلة كثيفة من الغار بدلاً من سقوطه على المدخل الحجري، مما خفف من شدة الوقعة.

بدأ سايمون بإغلاق الباب ولكن جولييت أمسكت بأكرة الباب وحاولت منعه عن ذلك. ورفعت وجهها المتورد لمواجهة نظراته القاضية.

ـ هل لك أن تتوقف عن التصرف وكأنك تملك كل شيء؟ أنت لا تملك هذا المنزل ولا تملكني ولا تملك أي حق في رمي أصدقائي خارجاً!

نهض آدم على قدميه.. مغتاظاً. ثم اتجه نحوهما وهو يتمايل مثل السكران: «سوف أنال منك، أيها المخبول!».

سخر منه سايمون: «اهه، لقد أخفتني». ولكن جولييت تحركت بسرعة لمنع العراك ووقفت بينهما تواجه آدم وفي عينيها إحراج شديد.

ـ أنا آسفة يا آدم على ما يحصل ولكن ما كان يجب أن تحاول تخطيه بالقوة، لأن طباعه شرسة.

دافع سايمون عن نفسه: «طباعي ليست شرسة!».

ثم طوق خصرها بكلتا يديه محاولاً إزاحتها عن طريقه.

دفعت يديه عنها: «لا تستعمل القوة البدنية معي يا سايمون! اذهب عني!».

ثم نظرت إلى آدم بتوسل.

ـ آدم، ما كان يجب أن تأتي إلى هنا. ما الذي دفعك، بحق الله، إلى المجيء؟

تذمر آدم، وهو يحدق إلى سايمون من فوق رأسها.

ـ من هو؟ وتقصّي هذا الأمر هو ما دفعني إلى المجيء. من يكون هذا الرجل؟ أليس هو الذي تكلم معي على الهاتف هذا الصباح؟ ماذا كان يعني بأنه زوجك؟ إنه ليس زوجك. أليس كذلك، يا جولي؟

قال سايمون: «بلى، أنا زوجها».

وفي الوقت ذاته قالت جولييت: «لا!».

ضحك سايمون فتنهدت قليلاً وقالت: «حسناً، في الواقع... نعم، و لا، يا آدم، هذه قصة طويلة، والوقت غير مناسب لشرح الأمر وتوضيحه».

أجابها بصوت مكتوم: «لا بأس، لدينا الليل بطوله. أنا بالطبع لن أعود إلى لندن قبل أن أعرف الحقيقة كاملة. وعلى أي حال، أنا مرهق ولن أقوم برحلة العودة حتى الصباح وأصبح الوقت متأخراً للحصول على غرفة في فندق ما، هذا إذا وجد الفندق. سأكون ممتناً إذا سمحت لي بالمبيت هنا هذه الليلة، ولا بأس إن نمت على الأريكة إذا لم يكن غير ذلك متوافراً».

رد عليه سايمون: «لا، حتى ولو كانت حياتك متوقفة على ذلك».

ولكن جولييت أخذت تفكر بصفاء ذهن، وأدركت أن وصول آدم هو المعجزة التي كانت تدعو أن تحدث، فأومأت رأسها ايجاباً وقالت بحماس: «يمكنك المبيت هنا بالتأكيد يا آدم».

رد عليه سايمون: «لا، دعيه يذهب إلى فندق».

ـ لا تتدخل في هذا الأمر!

ابتسمت جولييت لآدم وقالت: «أستطيع أن أدبر مكاناً لك أفضل من الأريكة، فعندنا غرفة نوم خالية ومريحة».

قال لها وهو متوتر قليلاً: «شكراً لك، لدي حقيبة ملابس صغيرة في السيارة، ولكني سأجلبها لاحقاً.

وعرفت من شيء ما في تعابير وجهه أنه يخشى إذا ذهب إلى السيارة الآن، أن يجد عند عودته أن الباب مغلق في وجهه.

هزت برأسها وتراجعت إلى الوراء وهي تؤشر له بيدها إلى غرفة الجلوس:

ـ تفضل إلى هنا، إنها أدفأ. تفضل اجلس. هل تشرب شيئاً؟ لا بد أن مفاصلك تجمدت من قيادة السيارة هذه المسافة الطويلة. هل تفضل شراباً ساخناً؟ قهوة؟ شاي؟

بقي آدم واقفاً على قدميه مواجهاً لها، وتعابير وجهه تنم عن استعداده للقتال. كان من الواضح أنه ليس في وارد تبادل الأحاديث الاجتماعية المتكلفة. ورد على ذلك:

ـ أولاً، أرغب بمعرفة الحقيقة مهما استغرق ذلك من وقت. هل هذا الرجل هو زوجك، أم لا؟

تسكع سايمون عند مدخل الغرفة وهو ينصت إليهما.

أجابته بصوت خشن: «حسناً، نعم، إذا جاز التعبير».

فتقلص وجه آدم، مما جعلها تتابع الكلام بسرعة: «آدم، كنت في السابعة عشرة من عمري عندما تزوجنا، ودام هذا الزواج يوماً واحداً، ثم هجرته، ولم أره منذ ذلك الحين حتى مجيئه إلى هنا. ولهذا قلت إننا لسنا متزوجين بالفعل و... صدقني، سنطلق».

رد عليها سايمون ببرود: «لا، هذا لن يحصل».

قالت جولييت بعصبية:

ـ لا تأخذ بكلامه. كان يجب أن أبدأ بإجراءات الطلاق منذ سنوات، ولكني لم أكن أرغب في الزواج ثانية ولهذا كنت أتلكأ بالاتصال به لوضع ترتيبات الطلاق أو حتى عن طريق محام، وهكذا داومت على تأجيل الأمر.

ارتفع حاجبا آدم: «أنا لم أستوعب هذا. تتزوجين وتتركين في يوم واحد؟ لماذا؟ ما الذي حدث بينكما؟».

رمق سايمون بنظرة عدائية وتابع: «ماذا فعل لك؟».

راودتها الرغبة في إخباره بكل شيء ولكنها قررت ألا تفعل، لأن ذلك سيؤدي إلى عراك جديد بين الرجلين، واكتفت بقول: «لم ينجح الأمر».

تدلى فك سايمون السفلي وكرر: «لم ينجح الأمر».

رد عليه سايمون لأن الاحمرار اعتلى وجه جولييت وأدرك وقع هذا التعليق عليها.

ـ لا. السبب أنها لم تعطِ هذا الزواج الفرصة الكاملة، أليس كذلك؟ لقد جُن جنونها ليلة زفافنا وهربت مني. إنها غلطتي، على ما أعتقد. كان يجب أن أدرك أنها ليست راشدة، كما كان يدل عليه مظهرها، ولكنها نجحت تماماً في التستر حتى حصل الزواج. لقد تصرفت كامرأة حتى جاءت اللحظة لتبرهن فيها أنها امرأة. فتقاعست من الخوف.

ردت عليه بامتعاض: «كنت في السابعة عشرة من عمري! إذا تصرفت كامرأة معك إلى أن تزوجنا، فلأنني كنت أحاول أن أتقمص هذا الدور، وهذا ما نفعله جميعاً، أليس كذلك؟ ونحن، رجالاً ونساءً نحاول أن نظهر أننا بالغون قبل وقت طويل من البلوغ فعلياً...».

قال لها بنبرة جافة: «وكانت النتيجة، أنك خدعتني».

فأخفضت بصرها، وهي تعض على شفتها، مدركة أنها لا تستطيع الرد على هذا الكلام.

قال آدم بوجه عابس: «كان يجب أن تخبريني. أنت تعرفين أنني كنت أفكر بالزواج منك، وكان عليك أن تخبريني بأنك لست حرة. لم يكن من

العدل أن تخرجي معي كل هذا الوقت من دون أن توضحي لي وضعك».

قالت له نادمة: «أنا آسفة يا آدم، أنت على حق بالتأكيد. كان يجب أن أخبرك، ولكن، أرجو أن تفهم أن ذلك لم يخطر ببالي لأني تقريباً نسيت أنني متزوجة».

قال سايمون منتقضاً والوعيد في عينيه: «ولكنك متزوجة، وستظلين متزوجة، ولهذا انزعي أفكار الطلاق من رأسك».

قال لها آدم مطمئناً: «لا تأخذي بكلامه! لن يستطيع منعك من الحصول على الطلاق، وهو يدرك ذلك، بزواج يدوم يوماً واحداً ويتبعه انفصال لثماني سنوات! الاستنتاج واضح، زواج فاشل لا مجال لإصلاحه، وهذا يوفر لك أساساً جيداً للحصول على الطلاق. حالما نعود إلى لندن يمكن تكليف المحامي البدء بأخذ الإجراءات القانونية، ولن يستطيع حيال ذلك شيئاً.

سألها سايمون بلهجة خطابية وبوجه متجهم: «وكيف ستعيشين بعد ذلك مع ضميرك؟ عندما يستولي ابن عمي وعائلته على مزارع شانتري».

استدارت، ونظرت إليه وهي تعض على شفتها، وظهر الضياع والتكدر على محياها.

سألها آدم وهو ينقل نظره بينهما: «ماذا؟ عمّ يتكلم الآن؟».

قال سايمون: «ليس هذا من شأنك، لمَ لا تذهب وتحضر حقيبتك من السيارة وتحمل نفسك إلى غرفة النوم في الأعلى؟».

استرجعت جولييت رباطة جأشها وابتسمت لآدم بتوسل.

ـ نعم ربما يجب أن تفعل ذلك. باستطاعتك أن تستحم أيضاً، لا شك أنك متعب، وهذا سيجعلك تشعر بالانتعاش أكثر. ولكن العشاء سيكون خفيفاً، فليس لدينا الكثير من الأطعمة الطازجة. نعتمد بشكل رئيسي على المعلبات، ولكن سأفعل ما بوسعي لتحضير وجبة شهية. وأعتقد أنها ستكون جاهزة خلال ساعة.

تردد وسأل: «إذا ذهبت لإحضار حقيبتي من السيارة، فهل سيحاول أن يُقفل الباب في وجهي؟».

ـ لا، أنا متأكدة أنه لن يفعل، فلا تقلق.

هز آدم كتفيه بعدم اكتراث وأومأ برأسه ثم خرج. وألقى سايمون على جولييت نظرة متحجرة جالت عليها من رأسها حتى قدميها.

ـ اصعدي وارتدي ملابسك، من فضلك؟ بقاؤك هنا وأنت شبه عارية يلفت النظر كثيراً، ولم تعجبني أيضاً الطريقة التي يحملق بها إليك.

ضمت ثنيتي صدر روبها بيد وهي تبادله نظرات الامتعاض.

ـ سأصعد حالما يعود آدم، لن أجازف وأتركك تمنعه من الدخول ثانية.

ـ إنه كما وصفته لي. مضجر وعادي وصغير العقل. ما الذي جذبك إليه، بحق الله؟

تجاهلته وهي تراقب الباب الخارجي بانتظار عودة آدم فيما كان سايمون يراقبها مثلما تراقب قطة وكر الفأر. عرفت أنه يحاول أن يستفزها ليلهب غضبها، وعرفت لماذا يفعل ذلك. فهو لا يريد لها أن تحتفظ بهدوئها ورباطة جأشها.

تابع سايمون: «من المؤكد أنه ليس أفضل ما استطعت العثور عليه».

تابعت متجاهلة، ولكنها تمنت لو أنه يتوقف عن تقويمها بعينيه الرماديتين.

ـ إنه ليس واقعاً في حبك. أتدركين ذلك؟ إنّ حب التملك يجتاحه، وربما ينظر إليك كإحدى ممتلكاته، ولكنه لم يفقد صوابه وتوازنه من أجلك. لم يحفر هذا الأمر عميقاً في داخله.

تقوس حاجباه بصورة ساخرة: «أشك إذا كان أي أمر آخر يحفر في نفسه عميقاً».

داومت على تجاهله وعدم إعطاء أي إشارة تدل على أنها تنصت إليه، ولكنها أحست بالفرج عندما سمعت آدم وهو يعود ويقفل الباب وراءه،

فابتسمت له وقالت: «تعال معي كي أدلك على غرفتك».

قال سايمون وراءها: «أنا سأفعل ذلك».

ـ ليس هذا منزلك وأنت هنا ضيف مثله!

انتفضت صائحة بعد أن فقدت صبرها فجأة: «هذا منزل أمي، وأنا على أي حال سأصعد إلى غرفتي، وفي طريقي أدلّه إلى الغرفة».

لقد أنقذها وصول آدم من ارتكاب غلطة فادحة. فلولا مجيئه في هذا الوقت بالذات، لانتهت إلى أحضان سايمون ولأحرقت كيانها. فإذا حملت منه، فستضطر إلى الإقامة في شانتري تسعة أشهر بانتظار ولادة طفلها. وبعد ذلك من الطبيعي أن يحتفظ بالمولود معه.

هذا يضعها أمام خيارين، أحلاهما مر. أتبقى مع طفلها وسايمون وهي تعرف أنه لا يريدها إلا كأم أو تهجر الطفل وتطلب الطلاق من الوالد؟ وأياً كان خيارها فسيتبع ذلك الحزن والألم، وهي اكتفت منهما منذ ثماني سنوات عندما هربت منه، ومن زواجهما القصير.

نظرت جولييت إلى آدم معتذرة، وهي تفتح باب غرفة النوم الثالثة في الكوخ والتي كانت أصغر من الغرفة الأخرى: «إنها ليست واسعة ولكنها على ما أعتقد، دافئة ومريحة».

نظر إلى أرجاء الغرفة الصغيرة بحذر. لاحظ أن الأثاث مصنوع بأكمله من خشب الصنوبر ويتألف من سرير صغير إلى جانبه طاولة صغيرة، وخزانة ملابس من درفة واحدة. كانت الستائر والسجادة من اللون الأخضر الفاتح والجدران مطلية باللون الأبيض اللماع.

قال لها بأدب وتهذيب: «جميلة جداً».

رغم أن كليهما يعرف أنها ليست ما اعتاد عليه وأنه لا يحب الذوق الريفي.

ـ أنا آسفة لتكبدك مشقة المجيء إلى هنا من غير ضرورة.

ـ وأنا ايضاً، الله فقط يعرف ما الذي دفعني إلى ذلك. يجب أن أفحص

رأسي عند طبيب نفسي. أقلقني ما سمعته عندما اتصلت بك على الهاتف. لم أستطع أن أصدق أنك متزوجة. ولكن هذا الرجل قطع المخابرة وعندما كررت الاتصال، عاود إقفال الخط. وبدأت أظن أنه ربما شخص مجنون يحتجزك... و...

قطع حديثه وتجهم وتوردت وجنتاه: «بدأت أتخيل ما يمكن أن يحدث لك، و..».

ـ هذا منتهى اللطف منك يا آدم. أن تأتي من أجل إنقاذي.

فجأة، اتسعت حدقتا عينيها ولهثت: «آدم! الحفلة، هذه الليلة، أليس كذلك؟ سيفوتك حضورها! من أجلي! قلقك بشأني وتصرفك أمر رائع ومؤثر وأنا ممتنة لك جداً، ولكن كان يمكنك أن تكتفي بالاتصال بالشرطة والطلب اليهم تفقدي والتأكد إذا كنت في أمان.

ألقى عليها نظرة غريبة وتردد قبل أن يرتجل الكلام: «بصراحة، لقد اتصلت بهم هاتفياً وأمضيت وقتاً طويلاً بانتظار من يمكنني أن أتحدث إليه. في البداية طلبوا أن أسجل بلاغاً. لكني أصريت على التحدث مع أحد، فحولوا الخط للرقيب. ولكنه لم يأخذ الأمر بجد. أوضحت له كيف أجابني الرجل، ولكن هذا الشرطي وجد الأمر مسلياً. لم يضحك، ولكني أدركت من نبرة صوته أنه يبتسم. وقال إنك ربما كنت تكذبين عليّ طوال الوقت وإنك متزوجة. كما قال، يبدو لي أن الأمر مسألة عائلية وأنهم لا يتدخلون في الشؤون العائلية».

ـ هذا لطف شديد منك.

ألقى آدم عليها نظرة من طرف عينه، ثم وبخها وانفجر بها معنفاً:

ـ نعم، والآن اكتشفت أن الشرطة على حق، كنت تكذبين طول الوقت، فأنت متزوجة وأنا كنت غبياً.

انفجرت به بدورها وشحب لون وجهها:

ـ الأمر ليس كما تتصوره. أنا لم أكذب... على الأقل لم أتعمد

الكذب. لقد نسيت أنني متزوجة.

ـ كيف يمكنك أن تنسي أمراً كهذا؟.

ـ لقد حدث ذلك منذ وقت طويل، وكنت حينها فتاة يافعة ولم يبد لي الأمر حقيقياً. لم أخبرك لأنه بكل بساطة لم يخطر هذا الزواج على بالي.

خيم الصمت على آدم وتأملها، ثم قال بامتعاض: «أنا دهش لأن أمك، على الأقل، لم تقل لي شيئاً. لقد أوضحت لها أنني أنوي الزواج بك... وكان الأحرى بها أن تحذرني...».

ـ هي لا تعرف أنني متزوجة! لأنني لم أخبرها قط. ولم أخبر أحداً على الاطلاق. وما أردته هو نسيان كل ما يتعلق بسايمون.

ـ هذا الرجل مخلوق وسخ، مقارنة مع الآخرين. بماذا كان يهددك منذ لحظات؟ أمر يتعلق بـ شانتري، وأنك ستندمين إذا تطلقت منه؟ ماذا كان يعني بذلك؟

ـ أملاك شانتري هي منزله وحقول عائلته، وهو يريد مني أن أعود معه إلى هناك.

قال آدم: «لقد فهمت، «معقل عائلته»، هل يعني ذلك أن هذا الرجل ثري؟».

أقرت له: «عائلته ثرية جداً. إنهم يملكون هذه المزارع منذ أجيال، ويملكون الكثير من الأراضي المجاورة للمنزل».

أظهر آدم استياءه: «هذا يوضح الكثير من الأمور، لقد ولد وملعقة فضية في فمه. خنزير متعجرف. أنا لا أستطيع تحمل هذا النوع من الرجال».

كادت تبتسم ولكنها استطاعت بطريقة ما المحافظة على هدوئها.

قالت له بلطف، «حسناً، أنا اشكرك على أي حال يا آدم لمجيئك إلى هنا لإنقاذي. تبدو لي متعباً جداً، لمَ لا تستلقي قليلاً وترتاح لمدة ساعة، فيما أرتدي ملابسي وأحضر العشاء».

خرجت من الغرفة وأغلقت بابها عليه واتجهت نحو غرفة نومها، لتفاجأ بوجود سايمون ينتظرها هناك. كان ممدداً على سريرها، واضعاً يديه خلف رأسه، وجسمه النحيل مسترخٍ تماماً. وبدأت نبضاتها تخفق بجنون لرؤيته، وهذا جعلها أكثر غضباً.

ـ ماذا تظن نفسك فاعلاً هنا؟

صفقته بهذا السؤال ولكن بصوت هامس خشية أن يسمعها آدم، فهي لم تكن ترغب بمواجهة أخرى بين الرجلين.

أجاب سايمون: «أليس ذلك واضحاً؟ كنت أنتظر خروجك من غرفته. ما الذي أخّرك إلى هذا الحد؟».

كان يتكلم بنبرة خفيفة ولكن عينيه كانتا متوعدتين ونظراته قاتلة، ولم تخدعها الابتسامة المرتسمة حول فمه، فسايمون يكون في أكثر حالاته خطورة عندما يبدو غير متكلف ومسترخ.

قالت له بفظاظة: «كنا نتحادث، اسمع، أريد أن أرتدي ملابسي. هلاّ تفضلت وخرجت وسمحتَ لي بقليل من الخصوصية؟ إذا كنت تريد التحدث معي، فلنقم بذلك في الطابق الأرضي».

بقي في مكانه، محافظاً على الابتسامة المرتسمة حول فمه، ناظراً إليها بعينين حادتين مثل طرف خنجر: «تتحادثان؟ كل هذا الوقت؟»

رفع ذراعه ونظر إلى ساعته ثم رفع أحد حاجبيه: «يبدو أن لديكما الكثير من الأحاديث تتبادلانها بينكما. ما الذي كان يجب أن تتحدثي عنه في غرفة نومه؟ ولماذا لم تتحادثا في الطابق الأرضي حيث يمكنني أن أسمعك؟».

صاحت به: «هذا هو السبب بالضبط، فنحن لا نريد وقوفك هناك والاستماع إلى كل كلمة نقولها لتقاطعنا عندما يحلو لك ذلك. ألا تستطيع أن تفهم وتستوعب أن لدي حياتي الخاصة، وأنك لا تستطيع التحكم بها؟».

تجاهل ما قالته بعجرفة، وقسمات وجهه متصلبة: «حسناً من الآن أنت لن تدخلي معه بمفردك إلى أي غرفة نوم. هل هذا واضح؟».

ـ من الآن وصاعداً، لا تدخل غرفة نومي، هل هذا واضح؟ وتوقف عن إعطائي أوامر. انهض عن سريري واخرج كي أستطيع أن أرتدي ملابسي.

قال لها بسخرية: «لقد رأيتك من قبل وأنت تبدلين ملابسك».

شعرت باللون الحار يطفر على وجهها. فصاحت به: «أخرج من هنا».

نهض عن السرير ووقف على قدميه وتراجعت إلى الوراء خائفة منه.

بدأ سايمون بالتوجه نحو الباب ولكنه استدار وأمسك بها، مثبتاً ذراعيها بيديه شاداً إياها بقسوة حتى التصق بها.

بدأت ترتجف من هذا التماس الحميم ولكنها شمخت برأسها ونظرت إليه بازدراء: «اتركني وإلا استدعيت آدم!».

ضحك مستهزئاً: «وماذا تظنين أنه يستطيع أن يفعل؟».

ـ هو...

بدأت وهي غاضبة لكنه ضمها إليه فمنعها عن الكلام. حاولت مواصلة الكلام ولكنه منعها، وتأوهت بنوع ما من الضيق وعواطفها ممزقة بين الغضب والرضا. لقد اكتشف نقطة ضعفها تجاهه ولم يتوانَ عن استغلالها. ولكنها كانت تعرف أن لا علاقة لعواطفه بالأمر، اذاً لماذا تسمح له أن يفعل بها هذا؟ إنه يستخدم عقله ولا يحكم قلبه، وإذا تركته يغويها للعودة معه إلى شانتري والإقامة معه ثانية كزوجة بكل معنى الكلمة، تكون غبية وفاقدة العقل.

توقف عن ضمّها، وأخذ يحدق في وجهها الحائر والمتورد الوجنتين:

ـ أنت الآن أجمل مما كنت عليه في السابعة عشرة من عمرك. أتعرفين؟ أوه، كنت مثيرة ومغرية، مراهقة نضجت أنوثتها قبل الآوان وكنت أرغب فيك بشدة ولكنك كنت نحيلة وجاحظة العينين. لقد تحسن قوامك بصورة بعيدة عما كان عليه. أنت الآن تعرفين ما يناسبك من ملابس ويلائمك من تبرّج، ولاحظت أيضاً أن ثقتك بنفسك ازدادت كثيراً وأنك أكثر رقياً.

أعتقد أن المرأة تحتاج إلى لمحة رقي كي تصبح مغرية ومثيرة، أليس كذلك؟

أرادت البدء بالكلام ولكن لسانها تعثر لأنه كان ينظر إليها بطريقة جعلتها ترتعش وجعلت مشاعرها تتحرك. هل هو فعلاً يجدها مثيرة؟ أم تراه يقول لها ذلك فقط كي يوقع بها في الفخ؟

وتمتم في أذنها بصوت خشن: «أنا أرغب فيك الآن أكثر بكثير مما رغبت فيك منذ ثماني سنوات».

أحست أن قلبها توقف عن الخفقان، «إنه يكذب»، قالت في سرها وهي تشعر باليأس. لا شك أنه يكذب. ولكن عقلانيتها لم تستطع أن تمنع قلبها من التجاوب بشدة.

أرادت أن تدفعه عنها، ولكنها لم تستطع، لأنها احبت ما يفعله بها. كانت تحترق شوقاً للمسة يديه، وكانت تريده بقوة لم تعهدها في نفسها منذ ثماني سنوات. لأنه لم يكن عند تلك الفتاة المراهقة التي كانت واقعة في غرامه أدنى فكرة عما يكون الحب.

قال سايمون وهو ينظر إليها متأملاً: «لقد بدأنا بداية سيئة يا جوليت، لقد أفسدنا كل شيء، أنا وأنت، أنا أعترف أني تصرفت بوحشية معك ليلة الزفاف، وأنا منذ ذلك الحين نادم على تصرفي هذا. ولكن عندنا فرصة الآن لبداية جديدة، فلا تضربي بها عرض الحائط».

حدقت إليه وقد أخرسها كلامه، وشحب وجهها، وبعد لحظات أفلتها فتراجعت مبتعدة عنه. ثم قال: «سأنزل إلى المطبخ وأبدأ العمل على تحضير عشائنا، هل تسمحين؟».

اجابته بصوت مبحوح: «شكراً لك».

خرج من غرفتها بسرعة، فأقفلت باب غرفتها بالمفتاح ثم توقفت بجانبه وكان عقلها بكليته مضطرباً ومشوشاً. كم مما قاله كان يعنيه فعلاً؟ إنها لا تعرف ماذا تصدق وهو يكاد يصيبها بالجنون. الحمد لله، بدأ الثلج بالذوبان وفي الصباح سيكون بإمكانها على الأرجح أن تعود إلى لندن.

ستعود مع آدم في سيارته اللاندروفر التي بإمكانها عبور الطرق حتى في الحالات السيئة.

استجمعت رباطة جأشها، يجب أن ترتدي ملابسها. فعلت ذلك من دون وعي لما ارتدته، ومشطت شعرها ووضعت مكياجاً خفيفاً ونزلت إلى المطبخ لتساعده في تحضير طعام العشاء.

كان يحرك شيئاً ما في طبق القلي واستدار لينظر متأملاً إياها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها. وقال ساخراً: «بسيط، وذوق رفيع جداً، أنا متأكد أن صديقك سيستحسن اختيارك».

لمحت صورتها المنعكسة في مرآة المطبخ الصغيرة، وأدركت ما يعني بكلامه. لقد ارتدت بصورة لا واعية تنورة سوداء وبلوزة بيضاء متواضعة وكنزة صوفية سوداء مفتوحة العنق، وهي بذلك تخلت عن الملابس الريفية وعادت إلى لباس المدينة الرسمي.

قال لها سايمون وهو يطفىء النار تحت طبق حساء الخضار.

ـ ألم أقل لك إنك مثيرة؟ أنا أسحب ذلك.

استفزتها نظرات عينيه الرماديتين:

ـ هادئة جداً هذه الليلة، أليس كذلك؟ أبسبب وجوده؟ أم بسبب وجودي؟ هل تتعمدين ألا أجدك مثيرة جداً في وجوده؟

ربما فعلت ذلك دون وعي منها، ولكنها اكتفت بهز كتفيها لا مبالية وحاولت أن توحي له أن صبرها نفد.

ـ كل ما فعلته ببساطة، أنني ارتديت أول ما طالته يدي، أنت تحلل الأمر أكثر مما ينبغي.

ردت عليه بذلك وهي ترفع غطاء طبق كان يغلي الماء فيه، وسألته: «لماذا تغلي هذا الماء؟»

ـ لأجل الأرز، لقد وجدت المزيد من صلصة البندورة المعلبة والفاصوليا وعلبة من سمك التونا... وهذا يوفر وجبة معقولة لثلاثة

أشخاص.

ـ أكاد أموت من الجوع. كان هذا يوماً طويلاً جداً بالنسبة لي وأشعر بالارهاق.

وضع سايمون ذراعه حول كتفها تحبباً وابتسم لها: «لقد نمت طوال بعد الظهر، وأنت لا تزالين مرهقة؟».

ـ لقد حدثت أمور كثيرة، منذ استيقاظي من النوم.

كانت تشتكي وتسند رأسها إلى صدره وهي تشعر أن جسمها متهالك ويحتاج إلى دعمته.

وافقها الرأي: «لقد كان يوماً مليئاً بالأحداث».

ثم انتقلت نظراته من فوق رأسها باتجاه باب المدخل وتصلب وجهه: «أوه، لقد استيقظت! طعام العشاء جاهز تقريباً».

قال ذلك ببرودة فتصلبت عضلات جولييت. واستدارت نحوه ايضاً ثم ابتعدت عن مدى ذراعيه.

دخل آدم المطبخ فوراً وقال وهو مقطب الجبين: «أنا آسف لمقاطعتكما!».

أجابته جولييت على عجلة: «لا، لم تقاطعنا. لقد حضر لنا سايمون عشاءً رائعاً، هيا لنأكل!».

لم يكن الطعام فاخراً جداً ولكنه كان دافئاً ولذيذاً مغذياً أكلته جولييت كله لأنها كانت جائعة جداً. نظفوا المكان معاً، وغسلوا أيديهم وهم يتبادلون حديثاً مقتضباً ومهذباً عن أحوال الطقس. في الخارج كان الماء الناتج عن ذوبان الثلج يتسرب من السطح ويقطر من أوراق الشجر وكان الماء المتجمع يجري في السواقي أو يسيل من مرتفع. واصبح الجو أكثر دفئاً... تناولوا القهوة في غرفة الجلوس، وهم يتصرفون بتهذيب متكلف.

أخيراً لجأ كل واحد منهم إلى غرفته وقد أخلدت جولييت إلى النوم فور أن وضعت رأسها على الوسادة، واستيقظت على ضوء الصباح الشاحب

والقاتم. نظرت إلى ساعتها ورأت أن الوقت تجاوز السابعة والنصف بدقائق. فنهضت واغتسلت وارتدت ملابسها. نظرت من نافذة غرفة نومها إلى الخارج ورأت أن معظم الثلج قد ذاب.

حزمت أمتعتها ونزلت إلى الطابق الأرضي لتجد أن آدم قد استيقظ أيضاً إذ كان يشرب القهوة ويأكل قطعة بسكويت غطاها الغبار قليلاً.

أشار إلى ما يأكله وقال بتجهم: «هذا كل ما استطعت العثور عليه».

ـ لا عليك، تستطيع أن تأكل في طريقنا.

ثم استطردت: «لقد قررت أن أترك سيارتي هنا وأعود معك إلى لندن. هل هذا يناسبك؟»

وضع الملعقة من يده وحدق إليها: «يناسبني تماماً. هل أخبرت هذا الذي، ما اسمه؟»

هزت رأسها نفياً: «أفضل أن أغادر قبل أن يستيقظ إذا كنت لا تمانع».

قال لها آدم ببرودة: «أتهربين منه؟».

ولكنه لم يطرح عليها المزيد من الأسئلة. أنهى شرب القهوة وعرض عليها أن تشرب بعضها وعندما رفضت خرج ليجلب حقيبة ملابسه. خرجت جولييت بهدوء من الكوخ وجالت بعينيها على الأراضي البور التي كانت تلمع من خلال الضباب، وهي تدعو ألا يستيقظ سايمون.

خرج آدم وهو يحمل حقيبته، وأغلقت خلفهما باب الكوخ الخارجي رويداً. سألها آدم وهو مقطب: «أتتركينه بمفرده في الكوخ؟ هل تعتقدين ذلك تصرفاً حكيماً؟».

أجابته جولييت وقد نفد صبرها: «إنه ليس مجرماً. عندما يغادر سيقفل الباب من تلقاء ذاته، وعلى أي حال، لن يستطيع الدخول ثانية، لذلك ليس هنالك من مشكلة».

ـ ألا تعتقدين أن أمك قد تعارض ذلك، إذا عرفت به؟ أعني ترك رجل غريب بمفرده في الكوخ؟

ـ إنه ليس رجلاً غريباً، إنها تعرفه، وقد عرفته وهو ما يزال طفلاً رضيعاً في مهده.

أوقع كلامها الروع في آدم، فحدّق إليها: «قلت إن أمك لا تعلم بأمر زواجك به».

ـ إنها لا تعلم، ولكنها تعرف سايمون. لقد أخبرتك من قبل أن والديّ تطلقا، وأنا أقمت مع أبي، الذي كان يعمل دائماً في شانتري، مزارع جيرار، وما زال يعمل هناك. أمي تعرف جميع افراد عائلة جيرار، بمن فيهم سايمون ولكنها هجرت أبي منذ سنوات قبل... قبل أن نتزوج.

ـ أنا لا أفهم شيئاً من هذا.

كانت تراقب الكوخ خشية أن ترى ستارة تتحرك أو وجهاً يطل. إذا رآهما سايمون يغادران فسيلحق بهما.

ـ هيا يا آدم! ليس هذا وقت الجدال، دعنا نبتعد طالما باستطاعتنا ذلك!

أدرك آدم تشنج أعصابها من نبرة صوتها، فسار بسرعة نحو اللاندروفر، وفتح أبوابها ورمى بحقائبهما إلى الخلف، أما جولييت فجلست على المقعد الأمامي بجوار مقعد السائق. انسل آدم وراء المقود وشغّل محرك السيارة ثم انطلقا مبتعدين. ألقت جولييت نظرة قلقة في المرآة الجانبية ولكنها لم تشاهد أي إشارة تدل على وجود حركة في الكوخ. لا شك أن سايمون نائم نوماً عميقاً.

قاد آدم السيارة بحذر لأن حالة الطريق لا تدعو للاطمئنان، ولكن مرأى الكوخ اختفى تدريجياً وطوته المسافات.. غاصت جولييت في مقعدها، متنهدة مرتعشة تتنازعها مشاعر متضاربة من الشعور بالفرج والراحة والإحساس بالندم المؤلم. إن هجرها له، أوجعها بالمقدار ذاته إذا لم يكن أكثر مما أوجعها يوم هربت منه بعد ليلة زفافهما.

سألها آدم فجأة: «أهي النهاية، اذاً؟ هل ستطلبين الطلاق منه، أم لا!

ما أعنيه، الأمر برمته يبدو محيراً. ألا تعتقدين أن من الأفضل لك وضع الأمور في نصابها؟ خاصة، وأنت تخافين من هذا الرجل.

أنكرت بامتعاض: «أنا لا أخاف منه!».

ـ هكذا يبدو لي الوضع.

وكان ذلك صحيحاً وهي تعرف ذلك. كانت ترتعب من سايمون وتحتاط منه كما يحتاط المرء من حيوان متوحش يتجول طليقاً، بحثاً عن طريدة.

قالت بنبرة فاترة: «من الواضح أني سأطلقه».

ولكنها شعرت بالغضب على نفسها، لأنها شعرت بالكآبة فور تلفظها بهذا الكلام.. زواجهما لم يكن قط زواجاً حقيقياً. فلماذا يزعجها إذاً التفكير في إنهائه؟

فكر آدم بصوت مرتفع: «ولكن هل سيضع العراقيل ويسبب لك المتاعب؟».

هذا تماماً ما سيفعله سايمون «وضع العراقيل». وهو سيبدأ بذلك لحظة استيقاظه في الكوخ واكتشافه هروبها منه. لن يتركها تهرب من دون أن يحاول جاهداً استرجاعها. لديه الكثير ليخسره، لذا سيلحق بها بسرعة، وشعرت جولييت بأعصابها تنهار لمجرد تصورها أن سايمون في أعقابها يلاحقها دون هوادة أو رحمة حتى يحاصرها في زاويته.

نظرت إلى عداد السرعة، وعيناها متقدتان. كان آدم يسير بسرعة ثابتة، ستين كيلومتراً في الساعة، وهذا يدل على التعقل في قيادة السيارة على هذه الطرق الزلقة. ولكن الرعب كان قد استولى عليها الآن، وكانت جولييت متهالكة للوصول إلى لندن قبل أن يتمكن سايمون من إدراكهما.

ـ ألا تستطيع أن تزيد من سرعة السيارة؟

فنظر إليها سايمون من طرف عينه بذهول.

حذرته جولييت: «سيلحق بنا».

فشحب لون آدم، وشعر بتقلص حلقه وتخلى عن الحذر وضغط قدمه على دواسة الوقود، فأسرعت السيارة باتجاه لندن.

***

٧ ـ صوت الحقيقة

كانت جولييت نائمة عندما أوقف سيارته أخيراً امام شقتها. هزها من ذراعها فاستيقظت مرتعشة وما زال النوم في عينيها. نظرت إليه، ولكن وجهها بقي خالياً من أي تعابير لبضع ثوانٍ ثم استعادت ذاكرتها كل ما حدث.

ـ أين نحن؟

أجابها آدم بنبرة جافة وممتعضة: «أمام شقتك».

لم تكن الرحلة سهلة عليها، ففي الساعة الأولى منها، أمطرها آدم بالأسئلة واستاء من كل أجوبتها وكانت منزعجة ونفد صبرها إذ لم تجد أن لديه الحق في الحكم عليها أو على سايمون، وقالت له ذلك، مما أدى بالطبع إلى حصول شجار صغير، وفي الأخير رفضت أن تتكلم معه أبداً، وأدارت له ظهرها وأغمضت عينيها وأخلدت إلى النوم.

قالت وهي تشعر بالفرح: «حقاً. لقد قطعت المسافة بوقت قصير».

قال لها آدم دون مبالاة: «لم يكن الطريق مزدحماً».

ترجل من السيارة وأنزل حقائبها ولحقت به جولييت على الرصيف، تتأمل بضيق نوافذ شقتها. من غير الممكن أن يكون سايمون قد وصل قبلهما. لقد قاد آدم سيارته بسرعة فائقة، ولكن لا شك أنه يسرع في أعقابهما.

ـ أترغبين أن أصعد معك، للتأكد من أن كل شيء على ما يرام؟

سألها آدم ذلك بتهذيب، وكان من الجلي أنه قرأ التعابير التي ظهرت على وجهها. ولكنها رفضت وهي تهز رأسها.

ـ لا، سأكون على ما يرام، إننا في وضح النهار.

حملت حقائبها التي لم تكن ثقيلة الوزن وكان باستطاعتها حملها دون عناء:

ـ شكراً يا آدم..

ولكنه مال عليها مقاطعاً: «لا شكر على واجب. وداعاً».

سار عائداً إلى سيارته للاندروفر، وجلس خلف المقود، وفي لحظة اختفى عن ناظريها تاركاً إياها على الرصيف تحدق خلفه. كان آدم يعني كلمة الوداع، لأن صدى انتهاء علاقته بها تردّد في صوته.

لقد هددها بقطع علاقتهما إذا لم ترافقه إلى الحفلة، ورغم ذلك لحق بها، لأنه خاف عليها، وكانت ممتنة له وشعرت بالندم لأن ذلك يعني أن آدم يهتم لها فعلاً، بطريقته الخاصة. هل كانت ستفعل الشيء ذاته، لو تبدلت الأدوار؟ فكرت بالأمر وابتسمت، نعم، بالطبع ستفعل. لم تكن واقعة في حبه، ولكنها كانت معجبة به تكنّ له المودة، وهي تهتم لأمره ما يكفي لتهرع إلى مساعدته اذا ظنت أنه واقع في متاعب. كان صديقاً لها، وشعرت بالأسف، لأنها على الأرجح لن تراه ثانية على الاطلاق.

ولكن لم يكن في نيتها البكاء عليه. لقد كانت علاقتها به فاترة منذ البداية وكانت ممتنة له لابتعاده عنها من دون المزيد من اللوم والعتاب.

نظرت إلى جانبها وشعرت بالتوتر فجأة. ماذا تفعل هنا، تقف في الخارج بينما من المحتمل أن تسمع زئير سايمون في أي لحظة؟ هرعت إلى شقتها وأقفلت الباب الأمامي خلفها، ومن ثمَّ تجولت في أرجاء شقتها، وهي ترفض في سرها أن تقر أنها تتفقد المكان للتأكد أن شقتها فارغة من وجود أي شخص.

بعدما تأكدت من هذا الأمر، فتحت حقائبها ووضعت كل الملابس

التي كانت فيها في الغسالة. كانت بحاجة لغسل كل الملابس التي ارتدتها في الكوخ. القميص الذي امتدت يد سايمون إليه، وثوب الحمام. شعرت أن كل ملابسها مغطاة ببصمات أصابعه. وفكرت في رمي كل هذه الملابس وعدم ارتدائها أبداً، ولكن ذلك سيكون جنوناً، فهذا يعني أنها تتقبل أمراً في نفسها، لم تكن مستعدة لتقبله.

كانت قد انتهت تقريباً من تناول الطعام عندما رن جرس الهاتف. قفز قلبها وتشنجت أعصابها. هل المتصل سايمون؟ يجب ألا ترد على المخابرة؟! إنما لم تكن عندها القدرة على تجاهل هذا الرنين الملح والصوت الحاد، وأخيراً التقطت السماعة.

همست بصوت خفيض: «آلو، نعم؟».

جاء صوت أمها: «اهه، لقد عدت!»

فاسترخت أعصاب جولييت وخف تسارع نبضات قلبها.

ـ نعم، أين أنت؟ أما زلت في ايطاليا؟

أجابتها شيرلي مندللي بابتهاج: «لقد قررت إذا لم تردي على هذه المخابرة أن أحجز أول طائرة مغادرة إلى لندن. كنت أحاول أن اتصل بك منذ الصباح وطوال قبل الظهر، اتصلت اولاً بالكوخ، وبقيت على الخط طويلاً من دون أن يرد أحد. ثم اتصلت إلى هنا، ثم اتصلت ثانية بالكوخ. وبسبب قلقي الشديد عليك، قررت العودة اليوم ولكن جورجيو قال ربما أنت في طريق عودتك إلى لندن، ولا داعي لهذه الهستيريا...».

ابتسمت جوليا وهي تتخيل منظرهما وهما يتجادلان. أمها تهتاج وتُجن دائماً لأتفه الأمور وهو دائماً يعمل على تهدئة روعها.

ـ ثم أدركت أن عليك أن تصلي لندن في ساعة الفطور. لذلك انتظرت ساعتين قبل أن أتابع الاتصالات وها قد وجدتك، لقد استرحت جداً لسماع صوتك! كيف كانت رحلة العودة إلى لندن؟ هل كانت حالة الطريق سيئة؟

ـ لا، لم تواجهنا أي متاعب، لقد ذاب معظم الثلج ولم تكن الطرقات مزدحمة بالسيارات.

ـ هل تكلمت بصفة الجمع؟ هل أتى بك سيم جيرار؟.

قررت جولييت الإجابة، وهي تدرك كثرة الأحداث التي عصفت بها في عطلة الأسبوع هذه، والتي لا تستطيع اخبار امها عنها.

ـ لا، لقد قام بذلك آدم.

ـ آدم؟ لم تقولي إنه ذهب معك إلى كورنوول.

ـ آدم لم يذهب معي، بل لحقني بسيارة لاندروفر استعارها من أحد أصدقائه للعودة بي...؟

ـ ولماذا سيارة لاندروفر؟

ـ لأنها تصلح أكثر من غيرها للطرق المغطاة بالجليد.

ـ اهه نعم، حسناً، هذا يدل على اكتراثه لأمرك. حبيبتي. هل ترغبين في عودتي حالاً؟ جورجيو مضطر للبقاء هنا عدة أيام.

ـ لا يا أمي، لا تكوني سخيفة! ليس من مشاكل هنا، إبقي مع جورجيو فهو يحتاجك أكثر من حاجتنا اليك هنا!

ـ حسناً، تمتعي بوقتك يا حبيبتي، وشكراً لك. ولكن إذا احتجت إلي فسأعود فوراً. ما عليك إلا أن تطلبي وأنت تعرفين ذلك.

أجابتها جولييت: «أعرف».

لكنها تعرف أنها لن تطلب، ولا تستطيع أن تطلب. فقد حافظت على الكثير من الأمور في سرها، وأخفت الكثير من الأمور عن أمها. وعندما ستسمع شيرلي القصة كاملة ستحزن كثيراً لأنها أخفت عنها أسرارها. هل ستتفهم لماذا أرادت نسيان زواجها وما انتهى عليه؟ يوماً ما، في القريب العاجل، ستخبر أمها كل شيء.

عاشت جولييت على أعصابها طوال بعد الظهر، بانتظار وصول سايمون أو اتصاله بالهاتف ولكن لا شيء من هذا القبيل حدث. وتوقفت

عن توقع ذلك عندما بلغ الوقت العاشرة ليلاً، حين خلدت إلى فراشها ولكن ليس لتنام. استلقت على السرير من دون أن يغمض لها جفن لساعات، كانت مضطربة وأفكارها مشوشة ضيقة.

لم يرد أحد على أمها عندما اتصلت بالكوخ. وهذا يعني أن سايمون غادر المكان، ومن المؤكد أنه غادره في الصباح الباكر. أين هو الآن؟ هذا أمر جلي، لا بد أنه عاد إلى شانتري بدلاً من الذهاب إلى لندن. لماذا فعل ذلك على أي حال؟ فهي كانت متأكدة جداً من أنه سيلحق بها.

هل تخلّى عن خططه؟ وهل صرف النظر عنها لأنها هربت مع آدم؟ لا تستطيع تصديق ذلك. سايمون ليس ممن يهزم بسهولة، لقد وضع حياته كلها في شانتري ولم يكن في نيته خسارتها إذا وجد أي سبيل يمنع ذلك.

حتى عندما خلدت إلى النوم، جاء نومها متقطعاً إذ استيقظت بين الفترة والأخرى. كانت تجلس في سريرها وتنظر حولها بذهول وكأن شخصاً ما أو شيئاً ما موجود في غرفتها، كان الأمر أشبه بمكان مسكون بالأشباح. وفي كل مرة كانت تدرك أنها بمفردها، كانت تتنهد عميقاً وتستلقي ثانية وتعود إلى النوم.

أيقظها المنبّه عند السابعة والنصف فشعرت وكأنها استيقظت من بين الأموات. غادرت السرير مترنحة ومرت بالرتابة ذاتها التي تقوم بها كل صباح قبل أن تنطلق إلى عملها. نظرت من النافذة قبل أن تغادر الشقة ولكنها لم تجد أثراً لسايمون أو لسيارته، فأسرعت بالخروج وركوب سيارتها.

كانت أعصابها طوال هذا الأسبوع على حافة الانهيار فيما كانت تعمل في المكتب أو تتجول على المخازن، وكانت تتساءل باستمرار عما إذا كان سايمون سيظهر ومتى. ولكنه لم يفعل.. وكان يجب أن يجلب لها الأمر راحة البال ولكن، يا للغرابة، لم يحصل ذلك. ولم تستطع النوم جيداً وكان التشنج يتآكل أعصابها.

هل تعمّد عدم الاتصال أو اللحاق بها؟ هل هو يحاول أن يتلاعب بمشاعرها؟ إذا كان الأمر كذلك فقد أصاب نجاحاً باهراً. لأن عقلها ظل معه رغم انخراطها بالعمل.

فكرت في سرها، لو عرف ما تعانيه لشعر بلذة الانتصار. واعتراها الغضب، وهي تناول هيلين سكرتيرتها مجموعة من الرسائل التي كانت قد وقعتها للتو، وعيناها متقدتان بصورة اوقعت القلق الشديد في قلب الفتاة الأخرى.

ـ هل أخطأت بشيء ما؟

ـ ماذا؟

عادت جولييت عن سرحانها واتشح وجهها بالغم: «لا، لم أجد أي أخطاء طباعية. شكراً، أنا آسفة يا هيلين، كنت أفكر بأمر آخر».

سألتها سكرتيرتها بتردد وهي تتأملها: «هل من خطب ما؟ أنت تبدين متوترة... جداً...».

من النادر أن تتلفظ هيلين بملاحظة شخصية كما كان نادراً أن تعطي ثقتها لأحد. ولهذا نظرت اليها جولييت بتعجب، ثم ابتسمت لها.

ـ إنها مسألة شخصية، ما كان يجب أن أتركها تؤثر في عملي! أنا آسفة، لا تهتمي للأمر يا هيلين.

اتصلت بها أمها في المساء ذاته لتخبرها أن أعمال جورجيو قد انتهت وأصبح باستطاعتهما العودة معاً، وأنهما سيستقلان الطائرة المغادرة إلى انكلترا صباح الغد: «من المفترض أن نصل إلى مانشستر عند العصر، سأتصل بك عندما نصل إلى البيت يا حبيبتي».

شعرت بالبهجة وهي تأوي إلى فراشها. فما إن يصل أمها وجورجيو بسلامة إلى موطنهما، حتى تعود حياتها إلى طبيعتها وقد تتوقف عن النظر خلف ظهرها طوال الوقت وعن الارتعاش في كل مرة يرن فيها جرس الهاتف. ومن الممكن جداً أن تتوقف عن التفكير في سايمون في كل لحظة من

لحظات يومها، متسائلة لماذا لم يأتِ بحثاً عنها. لو تعرف فقط أنه صرف النظر عن الأمر، لربما استطاعت أن تنسى هذا المسلسل الغريب برمته.

كانت ليلتها مضطربة مثل بقية الليالي الماضية ولم تستطع النوم حتى ساعات الفجر الأولى. فنامت عميقاً ولم تستيقظ على صوت منبه الساعة، ولكن راديو أحد الجيران أوقظها. جلست في سريرها، وهي ضائعة عما حولها تظن أن صوت الراديو يصدر من غرفتها. عندما عادت إلى نفسها نظرت إلى الساعة لتفقد الوقت واكتشفت وهي تتأوه أن صوت المنبه لم يوقظها وأنها ستتأخر عن العمل هذا الصباح.

تعثرت وهي تنهض عن السرير وفي الوقت ذاته انتهت الأغاني وبدأت نشرة الأخبار. وفيما كانت جولييت تتجه إلى غرفة الحمام لتخلع عنها ثوب النوم الحريري، سمعت اسماً مألوفاً ينساب إلى سمعها عبر الجدران الرفيعة التي تفصلها عن شقة الجيران.

ـ شانتري...

تجمدت جولييت في مكانها وظنت تقريباً أنها تخيلت سماعه، ولكن النشرة تابعت: «أحد أقدم المنازل في انجلترا، الذي كان في حوزة العائلة ذاتها منذ العصور الوسطى».

لماذا، بحق الله، تحمل نشرة الأخبار أنباء عن شانتري؟ فكرت جولييت وهي عابسة.

ثم تابعت النشرة النبأ: «ولم يعرف حتى الآن سبب هذا الحريق».

صرخت جولييت من الصدمة، وارتفعت يدها نحو فمها، اوه، لا! اوه، يا إلهي، لا! وتسارعت أفكارها... لقد أضرم النار في البيت لئلا يرثه ابن عمه!

«وأصيب في الحريق السيد سايمون جيرار الذي توفي والده، المالك السابق للبيت، في الشهر الماضي، وتم نقله إلى مستشفى غرانفيل، وهو يعاني من الحروق بعدما حجزته النيران والدخان المنبعث منها في غرفة نومه،

ولم يُبلغ عن إصابات أخرى..».

انقطع صوت المذيع فجأة وسمعت خشخشة أصوات اخرى ثم صوت موسيقى فيما بدا أن الجيران ينقلون من محطة إلى أخرى من دون أن يقر لهم قرار. هرعت مثل مجنونة نحو الراديو في غرفتها وأدارته، وكانت يدها ترتجف وهي تبحث عن المحطة التي تذيع نشرة الأخبار، واستغرقها ذلك بعض الوقت، ولكن الأخبار كانت قد انتقلت إلى نبأ آخر.

حاولت جوليا الاستماع إلى الاذاعات الأخرى، وأدارت التلفزيون ولكن نشرات الأخبار الأخرى لم تأت على ذكر هذا النبأ.

وأخيراً تخلت عن محاولتها وهرعت إلى الحمام لأخذ دوش سريع وارتدت ملابسها فيما كان القلق والخوف عليه يعصف بعقلها. ما مدى خطورة إصابته؟ يبدو أن الأمر خطير. ما الذي جاء في نشرة الأخبار تماماً؟ نقل إلى المستشفى، مصاباً بحروق بعد أن احتجز في غرفة نومه وتغلب عليه الدخان المنبعث؟ قد تكون حالته خطيرة بسبب الدخان وغالباً ما يموت الأشخاص الذين يتنشقون الدخان المنبعث من الحرائق.

يجب أن تذهب إليه وبأسرع ما يمكنها، هل من الممكن...؟ لم تستطع أن تتخيل الكلمات. سايمون رجل قوي، والبقاء للأقوى. هو لن يموت. يجب ألا يموت، لأنه إذا فعل ذلك فهي تريد الموت ايضاً.

أغمضت عينيها، وارتجفت، وأصبح وجهها اصفر اللون شاحباً. إنها تحبه. لقد أحبته منذ أن وعت على هذه الدنيا.. لم يكن حبها نزوة مراهقة أفقدتها صوابها نحوه، كما كانت تعلل الأمر لنفسها. مشاعرها نحوه كانت أعمق من ذلك بكثير. لقد أحبته، مثلما تحب النساء بعمق وصدق عاطفة. لقد حاولت أن تقتل حبها له بعد ليلة زفافهما المشؤومة. حاولت أن تكرهه. ولكن القضاء على مثل هذا الحب لم يكن أمراً سهلاً، وما إن وقعت عيناها عليه ثانية حتى انقد لهيب هذا الحب بالشدة التي كان عليها سابقاً. لقد أحبته حباً جعلها في بعض الأحيان تكاد تكرهه وتتمنى لو تقتله.

اتسعت حدقتا عينيها ولمعتا مثل النجوم القائمة على بشرتها البيضاء. سايمون يحب شانتري بنفس الشدة. تسارعت دقات قلبها من الخوف. وتذكرت بيتاً من الشعر، «كل رجل يقتل الأشياء التي يحبها. ومن الحب ما قتل».

أوه! لا يمكن أن يكون سايمون هو من أضرم النار في شانتري ولن يرتكب مثل هذه الأمور. كان يحب ذلك المنزل كثيراً. هذه فكرة مجنونة. ما الذي دفعها، بحق الله للتفكير على هذا النحو؟

قد يكون سايمون مهووساً بحب السيطرة، وقد يكون مزاجياً لا يمكن التكهن بتصرفاته مثل الأعاصير التي تهب من لا مكان. رجل تجري تحت قناع البرودة الذي يظهره أمام الجميع عواطف جياشة وأحاسيس حفرت عميقاً في داخله. ولكنه رجل قوي أيضاً يؤمن بالإخلاص والشرف وإلا ما الذي دفعه لكي يشعر أن من واجبه أن يتزوجها رغم أنه لم يكن يريد الزواج بها في البداية.

لا، سايمون لن يقوم بأي عمل لتخريب شانتري، حتى لو كانت ستؤول إلى غيره.

اتصلت هاتفياً بمستشفى غرانفيل فور تأكدها من استطاعتها الكلام إلى سايمون. سألتها الراهبة المسؤولة عن الجناح بتهذيب: «هل أنت إحدى قريباته؟».

ترددت جولييت ثم قالت للمرة الأولى في حياتها: «أنا زوجته».

- ذكرنا في سجلاتنا أنك أقرب أقربائه، ولكنه أخبرنا أنك ذهبت في رحلة سياحية، ولهذا لم نتصل بك لإخبارك بما حدث له؟ أرجو ألا يكون وقع الصدمة عليك شديداً بعد تلقيك النبأ. هل الشرطة هم الذين اتصلوا بك؟ لقد طلب منهم ألا يتكبدوا عناء ذلك، ولكن اعتقد أنهم شعروا أن ذلك من واجبهم. إنه بخير ومرتاح جداً. متى نتوقع وصولك؟

أجابتها جولييت بصوت مبحوح:

- اليوم. ولكن لا أستطيع تحديد الوقت بالضبط. أيتها الأخت، ماذا تعنين تماماً بـ «بخير ومرتاح جداً»؟ ما مدى خطورة إصابته وحروقه؟

- لا تقلقي. لقد وضعناه تحت المراقبة الشاملة. الصدمة النفسية هي التي قد تكون المشكلة في مثل هذه الحالات. وتنشق الدخان قد تكون له مضاعفات مستقبلية لا تظهر أعراضها فوراً. ولكن أعتقد أن باستطاعتي أن أعدك بأنه لا داعي للقلق عليه كثيراً.

عرفت جولييت أنها لن تحصل على جواب واضح وشامل. فقد كانت اجابات الراهبة حذرة ودبلوماسية. وعليها الانتظار، حتى تراه بنفسها، كي تعرف وضع سايمون على حقيقته.

اتصلت بعد ذلك بسكرتيرتها هيلين وأخبرتها أنها لن تأتي إلى العمل لأنه وقع لأحد أصدقائها حادث سيارة وسوف تعوده في المستشفى، وسيستغرق الأمر اليوم بطوله.

- تولي المسؤولية، هل تستطيعين ذلك؟ ألغي جميع مواعيدي. وخذي مواعيد جديدة، وإذا وقعت أي مشاكل فحاولي تجميدها حتى اتصل بك لاحقاً. من المفترض أن تصل طائرة أمي هذا المساء، الحمد لله، اتصلي بها واطلبي منها، إذا كان هناك من حاجة، أن تأتي إلى لندن غداً لتتولى العمل نيابة عني.

لم يثر الأمر فضول هيلين وأجابت بتهذيب: «لقد فهمت، سأفعل ما بوسعي، لا تقلقي. هل لديك رقم هاتف أستطيع الاتصال عليه لمخابرتك اليوم؟».

- لا، ليس بعد، سأتصل بك لاحقاً لإعطائك العنوان ورقم الهاتف.

ردت عليها هيلين ثم أضافت بهدوء: «أرجو ألا تكون إصابة صديقك خطيرة يا جولييت وسأصلي من أجل ذلك».

- شكراً يا هيلين.

قبل أن تنطلق، اتصلت ببيت أمها في مانشستر وبالتأكيد لم يكن أحد

موجوداً هناك ولكنها تركت لها رسالة على مسجل الهاتف شرحت فيها ما حدث، وقالت إنها ستتصل بها وتخبرها عن التطورات. ستصاب أمها بالحيرة والإرتباك بسبب اندفاعها للذهاب إلى المستشفى لتزور رجلاً لم تذكر اسمه ولو مرة واحدة في خلال السنوات الثمانية الماضية، وحتى نهاية الأسبوع الماضية. ولكن لم يكن عند جولييت الوقت للاسترسال في شرح الموقف. وهذا أمر ستواجهه قريباً، وسيكون صدمة عنيفة لشيرلي مندللي. أما في اللحظة الحالية، فالأمر الوحيد الذي كان يشغل بال جولييت هو الوصول بسرعة إلى سايمون.

***

٨ ـ أعود وحيدة

أقيم المستشفى في موقع تحيط به مروج خضراء وحدائق ورود على مقربة من بلدة صغيرة تبعد عن شانتري بضع كيلومترات وكان يقدم الخدمات الصحية لأهالي هذه البلدة والمناطق الأخرى المحيطة بها. تذكرت جولييت أنها أدخلت هذه المستشفى عندما كان عمرها خمس سنوات لاستئصال لوزتيها. حينها بدا لها هذا المستشفى واسع الأرجاء، بناء عالياً مهيباً على ما حوله، جعل الرعب يدب في قلبها. أما الآن، في هذا الصباح، فبدا لها حجم المستشفى وهي تسير باتجاهه من حيث ركنت سيارتها، كأنه انكمش. ومع ذلك شعرت بطعنة خوف واهتزت أعصابها وهي تنظر إلى المكان. كانت خائفة على سايمون. هل إصاباته بالغة الخطورة؟ كان رجلاً نشيطاً تملأه الحيوية فكيف سيتحمل الرقاد في الفراش لمدة طويلة؟

رأت المستشفى في الماضي بعيني طفل، أما الآن فتراه بعيني بالغ. كان طرازه واضح المعالم يدل على حضارة معينة. ربما كان يجب أن تجد هذه البيئة مطمئنة، ولكنها لم تستطع. فهو يثير قلقها، ويشعرها أنها تقترب من مكان عدائي حيث لا أحد يهتم إذا مات المرء أو عاش.

مشت تحت أقواس فناء واسع، بين اثنين من الأعمدة الحجرية الضخمة التي تشكل دعائم المظلة القوسية. عبرت باب المدخل المزدوج والمفتوح على مصراعيه إلى قاعة كبيرة مكتظة بالمقاعد الخشبية التي يجلس عليها مرضى العيادات بانتظار مقابلة المسؤول عن إعطائهم مواعيد مع الأطباء. وقفت في

www.elromancia.com

مكانها مترددة. لم يلتفت إليها احد. ارتدت وجوه هؤلاء المرضى قناعاً جلياً من الصبر، وكأنهم فقدوا الأمل ولم يعودوا يتوقعون البتة أن يكشف عليهم طبيب، وكان أمرهم مثيراً للاكتئاب.

اتجهت جولييت نحو الحارس وسألته عن كيفية الوصول إلى مقصدها، ثم انطلقت بحثا عن الجناح حيث أمضى سايمون ليلته. المسيرة كانت طويلة وبدا أنه لا نهاية للممرات التى تفوح منها روائح المطهرات ومنظفات البلاط، وفي النهاية دفعت باباً متأرجحاً وشاهدت راهبة تجلس إلى طاولة مكتب في غرفة زجاجية صغيرة.

سألتها الراهبة وهي تحدجها بنظرة سريعة ثاقبة: «هل تريدين رؤية السيد جيرار؟».

ثم ابتسمت لها وتابعت: «هل أنت السيدة جيرار؟».

توردت وجنتاها قليلاً وأومأت جولييت برأسها إيجاباً وتابعت الراهبة كلامها: «حسناً، الآن ليس وقت الزيارات، ولكن نظراً للظروف... تجدينه في الجناح الجانبي في نهاية هذا الممر وأرجو منك ألا تبقي عنده طويلاً، فقد حانت ساعة تناول طعام الغذاء».

نظراً للظروف؟ شعرت أن قلبها يعتصر من الخوف. إلامَ كانت تشير هذه المرأة؟ نظراً لأي ظروف؟ هل سايمون مريض إلى درجة التخلي عن قوانين المستشفى المعتادة؟ هل هو... أغمضت عينيها لبضع لحظات لأنها لم تستطع تحمل الأفكار التى انسلت مثل ثعبان مميت إلى ذهنها. لا يمكن أن يكون على وشك الموت ويجب ألا يكون.

سألتها ممرضة شابة بعد أن توقفت إلى جانبها وألقت عليها نظرة متفحصة: «هل أنت على ما يرام؟».

ارتعشت، واتسعت عيناها واعتلى الاحمرار الخفيف وجهها على الطريقة التي كانت تحدق بها اليها الممرضة.

ـ نعم، أنا على ما يرام. أبحث عن غرفة السيد جيرار. أخبرتني الراهبة

أنه في الجناح الجانبي.

ـ حذي يسارك عند نهاية الممر وسترينه، إنه المريض الوحيد في هذا الجناح حالياً.

شكرتها جولييت وتابعت سيرها. لماذا سايمون هو المريض الوحيد في هذا الجناح؟ هل لأن إصاباته خطيرة ويحتاج إلى الهدوء المطلق؟

استدارت نحو اليسار وشعرت بقشعريرة باردة من الخوف تسري في عمودها الفقري ونظرت بسرعة واستعجال إلى السرير الوحيد المشغول، كانت مضطربة جداً مما أوقع على عينيها غشاوة دامت برهة قصيرة، وعندما توقفت في مكانها وأنفاسها متقطعة، أدار الرجل الراقد في السرير رأسه وحدجها بنظراته.

زالت الغشاوة عن عينيها، واستطاعت رؤيته. أخذت عيناها الزرقاوان تجولان عليه في بحث سريع عما يدل على حالته الصحية. كان وجهه شاحباً، وبدا أن لون شعره أكثر سواداً بالمقارنة مع بشرته الخالية من اللون. ولكن الإصابات التي استطاعت رؤيتها أولاً لم تبد خطيرة.

بضع كدمات غامقة على خده الأيسر وجرح ممتد من صدغه إلى فوق العين اليسرى وإحدى يديه مضمدة برباط طبي غليظ. ارتخت ركبتاها بسبب شعورها بالاطمئنان والفرج فاستندت إلى أقرب كرسي.

حيته بصوت مرتجف وهي تحاول الابتسام: «مرحباً».

ولكن سايمون لم يرد لها الابتسامة، بل حدّق إليها بطريقة تنم عن الكراهية.

قال متأوهاً: «أنت! ماذا تفعلين هنا؟».

الخوف الذي استولى عليها أنساها كل شيء، فلم يخطر في بالها أن تسأل نفسها عما إذا كان سايمون يريد رؤيتها. وهي بالتأكيد لم تتوقع أن ينظر اليها بمرارة عدائية، وأحست أن الأرض تغور تحت قدميها.

ـ أنا...

تلعثمت بالكلام وعضت داخل شفتها: «أنا، سمـ... سمعت عن الحريق في نشرة الأخبار هذا الصباح، و....».

ـ وظننت أنني على وشك الانتقال إلى جوار ربي، وأنك سترثين كل ما أملك، على ما اعتقد. يؤسفني أن أخيب ظنك... فأنا لست على وشك الموت.

ردت عليه جوليا منتفضة: «يا للأسف!».

وأرسل الغضب فيها شحنة من الأدرينالين. ما الذي يدفعها، بحق الله، إلى الاهتمام بحياة هذا الرجل أو موته؟

ـ إذاً، لم يكن هناك من داعٍ لحضوري!.

تمتم هامساً: «لا، لقد ضيّعت وقتك، فأنا على أتم ما يرام».

ـ إذاً لماذا لم يسمحوا لك بالخروج من المستشفى؟

مشت ببطء في الغرفة وجلست على الكرسي المجاور لسريره. ولاحظت شيئاً آخر كان ظاهراً فخصلات الشعر على الجانب الأيمن من رأسه محترقة الأطراف، وكأن النيران تجاوزتها دون أن تحرقها فعلاً.

قطب جبينه بنفاد صبر: «اوه، إنهم يخشون عليّ من الصدمة، وبصورة رئيسية من المضاعفات اللاحقة لاستنشاق الدخان. لست في حالة خطيرة. والواقع أنني في وضع صحي يسمح لي بمغادرة المستشفى، ولكنهم يصرون على إبقائي من أجل ما يدعونه «المراقبة»... شيء مضحك. ويتضمن إيقاظي في كل مرة أخلد فيها إلى النوم وتسليط الضوء إلى عيني وافتعال الضجة حول سريري. وهم يمطرونني بالأسئلة، وتقديم الطعام وإن كنت متخماً».

شبكت أصابع يديها المرتجفتين بعضهما ببعض، واحمّر وجهها قليلاً بعدما لاحظت أنه كان يتأملها ايضاً:

ـ أعتقد أنهم يعرفون ماذا يفعلون، يجب أن تكون مريضاً مثالياً. يجب أن تفعل كل ما يطلبونه منك دون اعتراض على أي شيء. هل تفهم؟

ـ اوه أنت لا تتوقفين أبداً عن الجدال معي.

فتحت فمها، وعلى طرف لسانها رد قاسٍ. ولكنها لاحظت امتقاع وجهه ثانية، والهالات السوداء تحت عينيه، فعدّت في ذهنها حتى العشرة قبل أن تتكلم، وغيرت الموضوع.

ـ ماذا عن شانتري؟ هل عرفت مدى الأضرار التي لحقت به؟

أسند ظهره إلى الوسادات الموضوعة خلفه، وأطلق تنهيدة خافتة: «كل شيء يعوض، والفضل يعود إلى والدك».

اتسعت عيناها الزرقاوان وأغمقّ لونهما. ورددت كلامه: «والدي؟»

ـ كان هو من لاحظ الدخان المتصاعد من نافذة غرفة نومي وأطلق الإنذار. كان يستعد للانطلاق في جولته المعتادة على الأملاك في الساعات الأولى في الصباح، عندما لاحظ الدخان. هرع إلى المنزل. ولكنه لم يستطع أن يوقظ أحد، ولهذا اقتحم المنزل عبر نافذة المطبخ وصعد الدرج جرياً. ويظهر أنه وجدني ملقياً على أرض غرفة النوم، فاقد الوعي. جرني إلى الخارج ثم التقط طفاية الحريق عن الحائط وعاد إلى الغرفة ليطفىء الحريق، ولكن اللهيب استعر كثيراً، والوقت يجري. فأغلق باب غرفة نومي ثانية واتصل بالمطافىء والطوارىء. لم أعرف شيئاً من كل هذا لأني كنت غائباً عن الوعي. ولكنهم أخبروني هذا الصباح أنهم استطاعوا السيطرة. ولأنه تصرف بسرعة ودراية وفعالية لم تنتشر النيران أبعد من ذلك، ولم تتعدَ أضرار الحريق غرفة نومي.

شعرت بغصة في حلقها وابتلعت ريقها بصعوبة وألم: «كان يمكن أن يحدث ما هو أسوأ».

وقالت في سرها، كان محتملاً أن يُقتل في هذا الحريق. شعرت بطعنة سكين بسبب هذه الفكرة واتقدت عيناها وترقرقت الدموع فيهما ولكنها طأطأت رأسها كي تخفي مشاعرها عنه.

ران صمت طويل ثم تكلم سايمون ببرودة: «حسناً، بما أنك هنا، فمن الأفضل أن نستفيد من وجودك. لقد اكتفيت من هذا المكان وسأخرج

في صباح الغد إذا وافق الأطباء على ذلك أم لا. أريد العودة إلى شانتري، فأحضري بعض الملابس وأقليني بسيارتك في صباح الغد».

عبست جولييت وقالت له: «لا أعتقد أن عليك أن تفعل ذلك. أنا أنصحك».

صاح بها: «لم أطلب نصيحتك».

فصمتت.

لو كانت الظروف مختلفة لردت على صراخه بصراخ مماثل، ولمنعته من التكلم معها بلهجة الأمر والصراخ بها. ولكنها لم تستطع أن تفعل ذلك مع رجل في هذه الحالة. لم تره مريضاً قط أو حتى مصاباً بالزكام. ووجدت ذلك مزعجاً جداً. حتى هذه اللحظة، إذا سألها شخص من أي نوع من الرجال هو سايمون جيرار، فستقول دون تردد: قوي وصلب لا تؤثر فيه العواطف الإنسانية، وخطير إذا اعترضت طريقه.

أخفضت جفنيها وتفحصته متتبعة الطريقة التي رقد فيها جسمه تحت أغطية المستشفى البيضاء، كليلاً وفاتراً وساكناً. ربما نجا سايمون من الحريق، ولكن شيئاً ما أشبه بالكارثة أصابه أو لعله يعاني من مضاعفات الصدمة؟ من المحتمل أن تكون خطيرة، ألا يمكن ذلك؟ ذكرت نفسها وهي تشعر بالقلق. يجب ألا يغادر سايمون المستشفى إلا إذا وافق طبيبه على ذلك.

قال لها بنفاد صبر وهو يرفع رأسه عن الوسادة بحركة تدل على الغضب: «حسناً، هل ستقومين بما طلبت منك أم لا؟».

رفعت رأسها وتلاقت عيونهما، عيناها زرقاوان متقدتان تجولان على غير هدى وعيناه رماديتان بلون الفضة، قاسيتان وثاقبتان. شعرت جولييت بتقلص مؤلم في معدتها من حب لم يعد باستطاعتها إخفاؤه أكثر. وكي تلهيه عن اكتشاف سرها، أومأت برأسها له على عجلة وقالت: «نعم، إذا كنت تصر على ذلك».

تنهد قليلاً وسقط رأسه إلى الوراء، على الوسادة. وارتخت قبضة يديه عن طرف الغطاء وأغمض عينيه: «ارجعي حوالى الساعة الحادية عشرة بعد أن يكون الاخصائي قد فحصني، ومن المحتمل أن يأذن لي بمغادرة المستشفى».

لم يضف، أنه مهما كان رأي الإخصائي، سيغادر المستشفى ويعود إلى منزله. ولكن لم يكن عند جولييت أي شك في ذلك. لم يتسن لها وقت كافٍ كي تحاول ثانيةً إقناعه بالتخلي عن هذه الفكرة، لأنه في تلك اللحظة دخلت عليهما ممرضة وهي تحمل صينية الطعام. وقالت بابتسامة مهذبة: «أنا آسفة، ولكن الأم الراهبة طلبت مني أن أسألك المغادرة لأنه حان موعد وجبة الغداء ونحن لا نسمح بالزيارات في أوقات الطعام».

نهضت جولييت: «نعم، بالطبع...»

وقبل أن تباشر تحركها، امتدت يد سايمون وقبضت على معصمها بقوة فولاذية.

أخفضت رأسها، وافترت شفتاها في شهيق صامت، فحدجها بنظرات نارية وقال: «لا تنسي!».

أومأت له برأسها فأفلت قبضته عن يدها، عندئذٍ قالت بصوت أجش: «حسناً، أراك غداً، إذاً».

كانت تتوق في داخلها إلى ضمّه وإلى مسح خيط الألم المرسوم على شفتيه المشدودتين. ولكن سايمون أغمض عينيه ثانية، وبدا أنه نسي وجودها. فارتدت على عقبيها لتغادر وهي تبتسم للممرضة بتهذيب.

قهقهت الممرضة قليلاً وتراقصت الحسرة في عينيها: «لا بأس، باستطاعتك ضمّه، ولا تهتمي لوجودي!».

تورد وجه جولييت قليلاً ورمقت سايمون بجزع فوجدت أنه فتح عينيه وركز نظراته على وجهها بسخرية جعلتها تتصلب.

كان من المحرج أن تغادر بعد ذلك، فالممرضة تعرف أنها زوجة سايمون

ولا شك أنها تعجبت وهي تراها على وشك مغادرة الغرفة من دون أن تضمّه. ووجدت جولييت أن لا خيار آخر أمامها، ولهذا انحنت عليه بسرعة لتضمّه، فاستغنم سايمون الفرصة ليعانقها. ورفع يده ليمسك برأسها ويثبته في مكانه. بعد ذلك أفلتها فانتفضت واقفة وشفتاها ترتعشان ونبضات قلبها تخفق بجنون.

نظرت إلى عينيه لبرهة ورأت فيهما الهزء والسخرية فتراجعت إلى الوراء وقالت: «حسناً... إلى اللقاء...».

ـ أراك قريباً يا حبيبتي.

نادى عليها بذلك ولكنها لم تنظر إلى الوراء. كان يتعمد تعذيبها وهي تدرك أنها لا تستطيع شيئاً بشأن ذلك. كانت تشعر بالغضب والمهانة ولكنها عاجزة عن الرد، وهذا ما يسلي سايمون أكثر. لقد سمعته يضحك وهي تنعطف نحو ممر الجناح الرئيسي وصرت على أسنانها.

بعد مغادرة المستشفى، قادت جولييت سيارتها تحت أشعة الشمس الدافئة عبر الطرقات الريفية ذات الطبيعة المؤثرة. وعلى كل منعطف كانت تستعيد ذكرى من ذكرياتها، وشعرت كأنها أصبحت في عالم آخر. وعاد الوقت في ذهنها إلى الوراء، وأصبحت فتاة يافعة ثانية، توجعها لذعات الحب الأول، ولا تملك أي فكرة عن كيفية التعامل مع هذه الأحاسيس.

أصبح وصولها إلى شانتري وشيكاً، والتفكير في ذلك أصاب معدتها بمغص شديد وشعرت أنها على وشك التقيؤ، فمجرد التفكير في العودة إلى هذا المنزل ضرب من الجنون. من المؤكد أنه يستخدم امرأة للقيام على خدمته وتدبير المنزل وكان باستطاعة سايمون أن يطلب منها أن تحضر له ملابسه ونقله إلى البيت. فلماذا طلب منها هي القيام بهذا العمل؟

لمحت براعم ورد صغيرة متناثرة هنا وهناك تحت صفوف الأشجار التي تسيج الطرقات. حقاً.. لقد أتى الربيع وأصبح الطقس معتدلاً.

تمنت لو لم يكن فصل الربيع، لأن ذلك كان يشعرها بالاضطراب

والإحباط، وبأشياء لم تستطع تفسيرها. إن الربيع أفضل فصول السنة وأجملها. فالطقس دافىء وأشعة الشمس اشد بريقاً، ومن المفترض أن يكون فصلاً للسعادة وليس لمعاناة الآلام.

لقد حيّرها سايمون وشوّش أفكارها. فإذا كان يرغب فعلاً أن ترجع إليه وتنجب له طفلاً، فلماذا لم يلحق بها إلى لندن بعد هروبها من الكوخ؟ ولماذا لم يتصل بها منذ ذلك الحين أيضاً؟

لقد وصل إلى الكوخ وهو مصمم على نيل مأربه وبعزيمة كادت تقهرها وتجعلها تستسلم له فما الذي جرى وجعله يغير رأيه؟ لم تستطع أن تصدق أنه وجد في آدم منافساً يحسب له حساباً، لأنها لم ترَ أي دلائل على وجهه. وعندما تواجها وجهاً لوجه، كان سايمون واثقاً جداً من نفسه، متهكماً وبارد الأعصاب على عكس آدم الذي خرج عن طوره من دون أن يؤثر ذلك في سايمون.

عضت على شفتها وهي غاضبة على نفسها من هذه المشاعر المتضاربة التي تعصف بها. فمن جهة، هربت منه، وقالت في نفسها إنها ترغب بالابتعاد عنه، ومن جهة كانت تتوقع أن يلحق بها وكانت متوترة الأعصاب ليلاً ونهاراً لأنه لم يفعل. يجب أن تستقر على رأي وتعرف ما ترغب فيه، وألا تتأرجح بسبب عواطفها المضطربة.

كانت تلوم نفسها عندما ارتفعت تلة ووقع نظرها على شانتري، وشاهدت أشعة الشمس الربيعة تضيء القرميد الأحمر المختلف الأشكال والأحجام والمداخل وصفوف النوافذ العالية. حتى عن هذا البعد كان هذا البيت يفتن الناظر إليه ويومىء له مثل يدٍ سحرية. لم يكن واحداً من تلك البيوت التي تحيط بها الأبهة التي تردع المرء عن الاقتراب منها. شانتري أقيم ليكون منزلاً عائلياً، يرحب بصاحبه عندما يعود من الصيد، أو من العمل في المزارع، كما يرحب بالضيوف الذين يأتون لتناول العشاء أو المبيت.

كان البيت يقع داخل منشية صغيرة، مساحة خضراء كبيرة ترعى عليها

الأغنام. وخلف المنشية كانت تمتد الغابات التي يحرسها والدها، ولكن نظرات جولييت انجذبت نحو البستان الصغير الذي لمحته خلف منزل شانتري، ونحو الكوخ الذي يقع وراء البستان، حيث ولدت وترعرعت، والذي ما يزال منزل والدها.

لم تغفر لوالدها قط، لما حدث تلك الليلة في البستان، وكان آخر شخص ترغب في مشاهدته.

لو عرف أنها ظهرت في شانتري من العدم. فماذا سيفعل؟ هل يتجاهل الأمر؟ يحاول جاهداً أن يتجنبها؟ أو يأتي إلى المنزل لرؤيتها.

زمّت شفتيها بسخرية، لا، إلا هذا. كان أبوها رجلاً لا ينسى ولا يغفر، وهو لن يرغب في رؤيتها ثانية. إذا لم تعترض طريقه فلن يعترض طريقها. وهي متأكدة من ذلك.

قادت سيارتها عبر البوابة الحديدية المتقنة الصنع. من هذه النقطة انعطف الطريق الذي يؤدي إلى المنزل والمحاط على الجانبين بمساحات مسطحة من العشب. قادت جولييت سيارتها ببطء ورأت لأول مرة آثار الحريق الظاهرة للأعين.

ركنت سيارتها أمام المنزل على أرض مفروشة بالحصى، ترجّلت منها ونظرت بحيرة إلى الباب الأمامي الضخم المصنوع من خشب السنديان والمزدان بمسامير حديدية. هذا هو الباب الأصلي للمنزل بعوارضه الحديدية، باب إذا أغلق، يمكنه أن يصمد أمام منجنيق حربي.

حدقت إلى الباب، وإلى النوافذ المسدلة ستائرها وشعرت بالخوف يستولي على قلبها. لن تستطيع المتابعة. لن تستطيع أن تدخل إلى البيت، عليها أن تبتعد.

كانت على وشك العودة أدراجها إلى السيارة عندما سمعت وقع خطى تصر على الحصى فارتدت وشاهدت والدها آتياً من حول البيت.

شحب وجه جولييت واصفرّ لونه بفعل الصدمة، وتوقف جاك نيوكوم

عن سيره وأصبح مثل الصنم. أخفض رأسه وتصلبت عضلاته كما تتصلب عضلات ثور على وشك الهجوم. حملقا إلى بعضهما بعضاً دون أن يتحركا أو ينفوها بكلمة للحظات بدت طويلة جداً.

زاغت عيناها من كثرة ما تفحصته. لقد تقدم في العمر أكثر مما كانت تتوقعه. شاب شعره بالكامل وانحنت كتفاه وكأنه يحمل عليهما أثقالاً. ولاحظت أنه فقد الكثير من وزنه، وكأن حجمه انكمش. لقد أصبح عجوزاً! فكرت وهي تشعر بالذهول.

كان جاك نيوكوم يحدق اليها ايضاً، مقطباً حاجبيه الرماديين وعابساً بصورة لا تصدق.

جاء صوته خافتاً وخشناً، وكأنه لا يصدق ما تراه عينيه: «جولييت، أهذا أنت؟».

أجابته بصوت مبحوح: «نعم، كيف حالك يا أبي؟».

قالت كلمة «أبي» بعفوية غرائزية.

تقدم والدها نحوها ببطء وما زال يحدق إليها:

ـ أنت... أنت تغيرت كثيراً...

ـ لقد كبرت ثمانية أعوام.

أن تتغير كثيراً لهو الأمر الوحيد المفترض توقعه، لأنها كانت مراهقة عندما هربت والآن هي امرأة ناضجة. ولكنها لم تتوقع أن يتغير والدها بهذا المقدار.

وقف في مواجهتها دون حراك وأدركت أنهما متساويان في الطول. كان يبدو في الماضي أن طوله يسمو ويهيمن عليها.

ـ ماذا تفعلين هنا يا جولييت؟

ـ لقد سمعت أخبار الحريق... على الراديو، سايمون...

بدأت تجيبه بصوت مضطرب، فأظلم وجه والدها ولوى فمه.

ـ اوه، فهمت! لقد جئت لتستطلعي إذا أصبحت أرملة ثرية، على ما

اعتقد! على أي حال، لا تأملي بذلك، لأن...

قاطعته بغضب: «لا تقل ذلك يا أبي! لقد أتيت لأني خفت عليه جداً عندما سمعت الخبر. لقد خشيت أن يموت سيم، وأنا...».

لم تستطع العثور على الكلمات التي تعبر عما في داخلها ولكن حقيقة مشاعرها بانت بوضوح وبساطة، وجاك نيوكوم أنصت إليها وهو معقود الحاجبين ومتجهم.

ـ إذا كنت تهتمين لأمره. فلماذا ابتعدت عنه؟

ـ هذا شأننا وليس شأنك!

ما زالت تشعر بالغضب، وتشمخ برأسها متحدية وتحدق إليه بعينيها الزرقاوين وكأنها تخبره من دون أن تتكلم أنها الآن امرأة بالغة وليست طفلةً، ولا يحق له أن يزجرها.

ـ كنت أنا من بقي هنا في مواجهة الجميع بعد أن غادرت! كان الناس يحدقون بي بنظرات غريبة. نعم كانوا يتظاهرون بالتعاطف معي ويلاطفونني برقة عندما أكون معهم ولكن عندما كنت أدير ظهري كانوا يتهامسون ويضحكون على خيبتي، فلا شيء عندهم غير الثرثرة. حتى الفتيان، كانوا يختبئون خلف الأشجار، يسترقون النظر ويطلقون التعليقات الساخرة ثم يفرون.

قطع كلامه وابتلع ريقه بصعوبة ثم تابع: «أولاً، هجرتني زوجتي ثم هربت ابنتي... هل تتعجبين إن ظن الجميع أن العيب فيّ؟»

كرهته لسنوات طويلة، وحمّلته مسؤولية ما جرى لها، واعتقدت أنه المخطىء. ولكن مزيجاً غريباً من الشفقة والندم جعلها تجيبه برقة: «لا، لم تكن أنت المخطىء، يا أبي. لقد هربت من سايمون، وليس منك وهو يعرف لماذا هربت منه ولا علاقة لك بذلك».

ركز جاك نيوكوم عينيه القاتمتين على وجهها: «إذاً لماذا لم تتصلي بي منذ ذلك الحين؟».

ـ أنا آسفة! لقد كنت غير سعيدة، لقد أردت أن أنسى...

لوحت يدها بإشارة مسحت فيها البيت والأراضي وشخصه.

ـ... كل شيء! لقد طويت هذه الصفحة من حياتي، لم أقدر على تحمل ذكراها.

حدقت في عينيه وظهر على وجهها الاستعطاف:

ـ تستطيع تفهم ذلك أليس كذلك يا أبي؟

لم ينعزل جاك عما حوله بدنياً، ولكنها تذكرت ما كان عليه في السنوات التي أمضتها وهي تترعرع في كنفه وعرفت أنه انعزل روحياً ونفسياً وأغلق الباب على كل ما حوله، حتى ابنته.

وقف جاك في مكانه ثابتاً جداً. لم يبد أي حركة، وعيناه خاليتان من التعابير، وخيل إليها للحظة أنه سيرفض استعطافها له وتوسلها، ثم أومأ برأسه وتنهد عميقاً: «نعم، أستطيع أن أتفهم...».

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتكلمان إلى بعضهما البعض كشخصين ربط بينهما تواصل حقيقي، تفاجؤهما بالأمر جعلهما يشيحان أنظارهما ويخيم عليهما الصمت. عضت جولييت على شفتها وأخفضت جفنيها، غير عارفة ما يمكن أن تقوله الآن. الشيء الوحيد المألوف فيه لديها كان ملابسه، فهو مازال يرتدي السترة الصوفية القاسية الرثة والقميص الكاكي الباهت اللون، والسروال القطني البالي والحزام الجلدي العريض حول وسطه. أما الآن فأصبحت هذه الملابس فضفاضة عليه، وذوى الجسم الذي في داخلها، وشعرت بالدموع تترقرق داخل عينيها. إنها لا تعرف هذا الرجل، ولم تعرفه قط، وقريباً سيفوت الأوان على ذلك.

قالت له بصوت مبحوح: «لقد ذهبت إلى المستشفى ورأيت سايمون... وقال لي إنك أنقذت حياته...».

ـ إنه يضخم المسألة. كل الذي حدث أني لاحظت الحريق قبل أن تستعر نيرانه. زارني منذ ساعة صحفي محلي وهو يحاول أن يبني على هذا الحادث

ملحمة بطولية وقلت له إن كل ما فعلته هو إيقاظ سايمون من النوم.

قالت وهي تبتسم له: «سايمون يعتقد أنه كان عاجزاً عن الاستيقاظ بنفسه، ويعتقد أيضاً أنه لولا وجودك لأصبح في عداد الأموات الآن».

ـ هراء...

أصبح لون وجه جاك نيوكوم اكثر احمراراً، إنه رجل شجاع يكره أن يتكلم عن شجاعته.

لكن جولييت راقبته فرأت أن الوحدة رسمت خطوطها على وجهه وبانت في عينيه برودتها. إنه رجل عجوز الآن... ووحيد، كما كان طول حياته.

هز كتفيه غير مبالٍ، وغيّر موضوع الحديث: «هل ستقيمين هنا في شانتري طالما أنت هنا؟».

ـ لقد طلب مني أن أحضر له ملابس.

استفهم منها متعجباً: «لن يرسلوه إلى البيت بهذه السرعة! كان في حالة سيئة عندما سحبته من غرفة النوم».

ابتسمت لإقراره بشجاعته: «أنا لا أعتقد أن المستشفى ستوافق على ذلك، ولكنه مصمم على مغادرتها، سواء أعجبهم ذلك أم لم يعجبهم».

تمتم جاك نيوكوم: «يا له من غبي» وضحكت جولييت.

ـ أنت تعرف كيف هو سايمون.

ـ اوه، أعرفه جيداً... عنيد مثل بغل وأغبى منه بضعفين! ألا تستطيعين إقناعه بالبقاء؟

ـ لقد حاولت ولكنه صرخ في وجهي وطلب مني أن أفعل ما طلبه مني وأحضر له الملابس.

توقفت هنيهة عن الكلام ثم أضافت: «ما الذي سبب الحريق؟».

ـ الأسلاك الكهربائية فهي قديمة قدم هذه التلال المحيطة وكلها تحتاج للتبديل.

نظر إليها متفحصاً: «هل ستشعرين بالقلق من مبيتك هنا خشية اندلاع حريق آخر؟ ربما من الأفضل أن تنامي في الطابق الأرضي فهو يحتوي جناح مدبرة المنزل وفيه غرف صغيرة مجاورة للمطبخ وقد تم تجديد الأسلاك الكهربائية فيها منذ فترة بسيطة، ولكن يجب أن تتدبري أمر السرير، على ما أخشى».

ـ لا حاجة إلى ذلك فسأذهب على الأرجح إلى فندق.

عبس في وجهها: «لماذا تنفقين القرش الأبيض، ما دام باستطاعتك المبيت هنا مجاناً؟ وعلى أي حال أنت زوجة سيم ولك الحق في ذلك، وأنا متأكد أنه يريد منك ذلك...».

ـ ربما، نعم، ولكني لا أرغب في مواجهة الكثير من نظرات الآخرين وأسئلتهم، أليس عنده مدبرة منزل؟.

ـ كان هناك واحدة، ولكنه صرفها بعد موت والده لأنه لم يعد بحاجة إليها بعد أن أصبح بمفرده في البيت. وحالياً تأتي امرأة من القرية في أيام الأسبوع لتنظف المنزل وتطبخ له، ولكنها ذهبت منذ ساعة تقريباً، بعد أن نظفت غرفة نومه قدر المستطاع. وهكذا تجدين أن لا أحد هنا كي يطرح أسئلة أو يكون فضولياً، فلا تقلقي.

استدار نحو باب المنزل الأمامي واخرج من جيبه حزمة مفاتيح وقال: «لدي المفتاح وسأدخلك إلى المنزل».

شعرت جولييت بغرابة شديدة وهي تخطو عتبة الباب لأول مرة بعد انقضاء ثماني سنوات، وهبطت كل أثقال الماضي على كاهلها.

كادت تصرخ عالياً من وجع الذكريات المريرة، ولكن أشعة الشمس انسلت عبر الباب إلى القاعة القديمة المغطاة جدرانها بصفائح خشبية كاشفة عن جمال كانت قد نسيته. الأرضية الحمراء اللون الفاترة التي تبرق بفعل سنوات من الصقل المتواصل، وعوارض السقف العالي الخشبية، ومدفأة الحائط الحجرية الضخمة التي وضع عليها إناء طويل يحتوي على أزهار

الربيع التي يعبق جو القاعة برائحتها. وأدركت أنها بطريقة ما، قد تحررت أخيراً من مشاعر البؤس والحقد والإحساس بالذنب التي حملتها طويلاً في وجدانها.

***

٩ ـ آخر خدعة

قالت الممرضة المسؤولة: «إذا كنت تصرّ على أن تكون أحمقاً، لا أستطيع أن أمنعك، ولكن من واجبي أن أحذرك...».

ـ لقد اكتفيت من التحذيرات! فلا تكرري هذه الجرعة الإضافية وأخبريني أين يجب أن أوقع.

أسكتت نبرة سايمون الحازمة المرأة وأطبقت شفتيها قبل أن تدفع باتجاهه أنموذجاً، وتشير صامتة إلى أين يجب أن يضع توقيعه.

وقفت جولييت إلى جانبه، متوردة الخدين وهي تشعر بانزعاج الممرضة ونظراتها المؤنبة.

لم يلاحظ أحد حقيبة الملابس التي حملتها معها إلى جناحه. أخرج سايمون الملابس من داخلها، واختفى بها داخل غرفة الحمام، خرج بعدها بكامل لباسه، البنطلون الرمادي والكنزة الزرقاء السميكة ذات القبة العالية، التي أضفى لونها دفئاً على لون عينيه. كان وجهه لا يزال شاحباً ومنظر الحروق على خده مزعجاً، ولكنه في ملابسه عاد إلى طبيعته.

ـ لقد اختار والدي هذه الملابس بنفسه. كان بإمكانه أن يحضرها لك، ايضاً. ولم تكن تحتاج للقيام بذلك.

ـ أنا الذي أقرر من أحتاج وماذا احتاج.

وامتقع وجهها. كانت تتصارع مع مشاعرها الغبية، وتخشى أن يكتشفها ويفهمها، فهو لم يكن يراقبها، لأنه باشر بالخروج من الغرفة وسار

www.elromancia.com

عبر الجناح وأجفل الممرضة الشابة التي كانت تعطي الدواء لمريض آخر. فتحت فمها وصرخت في أثره: «اوه! سيد جيرار... ماذا تفعل... إلى اين...؟».

حثت جولييت السير وراء خطاه العريضة وحاولت ألا تفكر فيما قاله لها للتو. قد يكون بحاجة إليها لتنجب له طفلاً، ولكن هذه الحاجة هي ضرورة مادية بالكامل، ولم تكن من نوع الحاجة التي تشعر بها تجاهه.

اعترضت الممرضة المسؤولة طريقهما وهي دهشة وغاضبة لرؤيته بكامل ملابسه. وبدأ جدال طويل بينها وبين سايمون الذي أنهاه بلهجة حازمة. حاولت أن تجر جولييت إلى المناقشة، ولكن سايمون قال لها بفظاظة: «اتركي زوجتي خارج هذا الموضوع! لقد قامت فقط بما طلبته منها».

كانت جولييت مسرورة لإبقائها خارج هذا الشجار، ولكنها أخذت جانب الراهبة، رغم أنها لم تقل شيئاً. سايمون لم يكن محقاً بمغادرة المستشفى بهذه السرعة، لأنه لم يتماثل للشفاء تماماً. ولأنها تعرف طباعه جيداً، امتنعت عن مجادلته، وحاولت أن تبدو هادئة ومطيعة.

بعد توقيع الأنموذج الضروري للتسريح من المستشفى، غادرا المكان إلى حيث ركنت جولييت سيارتها. اتجه سايمون إلى جانب مقعد السائق ولكن جولييت تخطته في اللحظة الأخيرة ووضعت يدها على مسكة الباب وشمخت بذقنها تحدياً.

ـ شكراً، أنا التي سأقود. إنها سيارتي.

أمعن النظر في التعابير التي ظهرت على وجهها بعينيه الثاقبتين وقال: «إذا كنت تصرين على ذلك!».

ـ نعم، أنا أصر.

فتحت الباب ودفعت بحقيبة الملابس على المقعد الخلفي وجلست وراء المقود، هي تشعر برعشة خفيفة من هذه المواجهة القصيرة التي انتصرت بها، فقد جعلته يتراجع عما كان يعتزمه. كان انتصاراً قليل الأهمية... ولكنه

على أي حال، انتصار.

انسل سايمون إلى جانبها، ومدّد رجليه الطويلتين وتنهد: «لو تعلمين مدى سروري لابتعادي عن هذا المكان».

ـ وأعتقد أنهم مسرورون ايضاً للتخلص منك، فأنت لست بالمريض المثالي.

كان يراقبها، ورأسه في وضع جانبي على مؤخرة المقعد. ووجدت أن نظراته تهز الأعصاب وتساءلت في ما كان يفكر.

سألها بهدوء: «كيف جرت المقابلة مع والدك؟».

ـ لقد تكلمنا.

لم يكن هناك من طريقة تستطيع بها أن تشرح لأي شخص ما حدث معها عندما قابلت والدها ثانية. إحساسهما بطريقة معينة أنهما يتقابلان لأول مرة وكأنهما شخصان غريبان، كان أمراً غير متوقع ومزعجاً، فالسنوات الثمانية الماضية غيرتهما جذرياً. هي أصبحت امرأة ناضجة وهو تقدم في السن. الزمن قضى على خلافاتهما وأزال كل غضبهما. لقد تصالحا مع نفسيهما ومع الماضي.

قال سايمون: «حسناً، حسناً. من كان يظن ذلك؟».

ـ يظن ماذا؟

كانت تعلم ما تبطنه هذه اللهجة السافرة من معانٍ، ولكنها لم تحول نظراتها عن الطريق الممتدة أمامها.

تمتم سايمون وهو غارق في التفكير: «في الحقيقة، لست متأكداً تماماً. هل ذلك يعني أنك أصبحت امرأة ناضجة فعلاً، أو أن أباك توصل أخيراً إلى إدراك الأمور على حقيقتها».

قالت له متنازلة عن حق الرد: «ربما كلا الأمرين».

وظهرت ابتسامة خفيفة على محياها.

سألها: «وما شعورك حيال هذا الأمر؟».

وفكرت لحظة قبل أن تجيب: «التشويش».

علق ضاحكاً: «أنا متأكد من ذلك».

في ذلك الحين تجاوزتها سيارة بيضاء كانت مسرعة مثل السهم ودوى صوت إطاراتها ودمدمة تسارع محركها. ونجت، على قيد شعرة، من الاصطدام بشاحنة ضخمة كانت قادمة من الاتجاه المعاكس. أطلقت الشاحنة بوقها بغضب، وردت السيارة السريعة بالمثل من زمورها، ثم اختفيا وتركا الطريق لسيارة جولييت.

أطلقت جولييت تأوهة: «اعتقدت فعلاً أنه قضى علي هذا الأحمق المجنون».

صحح لها سايمون: «إنها! سائق السيارة امرأة».

ـ حتى لم تكن تنظر إلى السيارة! ما قلته تحامل ذكوري على النساء.

أجابها سايمون وهو يبتسم بصورة تثير الأعصاب: «لا بل دقة ملاحظة. لقد عرفت لمن السيارة. إنها تقيم على مقربة من شانتري واسمها اندريا جايمسون، وهي تعمل مصممة إعلانات وتذهب كثيراً إلى لندن».

رمق جولييت بنظرة جانبية وأضاف: «إنها شقراء مثيرة جداً أيضاً وأراهن أنها لفتت انتباه كل رجل موجود على دائرة ثلاثين كيلومتراً من هنا».

ـ حسناً، إذا كانت تقود سيارتها دائماً على هذه الصورة فلن تعيش طويلاً.

قالت جولييت ذلك غاضبة وهي تشعر بألم الغيرة بين ضلوعها. كم من النساء مررن في حياته منذ أن تركته؟ ثماني سنوات تعتبر مدة طويلة، وهو ليس بتولاً. ومشاعره قوية جداً. أما زال على اتصال بهن؟ أهو على علاقة بإحداهن؟ هو لا يزال غريباً عنها في كثير من الأمور وهي تقريباً لا تعرف شيئاً عنه أو عن حياته الخاصة، رغم أنه زوجها منذ ثماني سنوات.

ـ في أي غرفة في شانتري نمت ليلة البارحة؟

سألها، قاطعاً عليها أفكارها، فأجفلت بقوة جعلتها تفقد السيطرة على المقود وانحرفت السيارة إلى الاتجاه المعاكس وكادت تصطدم بالسيارة القادمة التي أطلق سائقها زمورها احتجاجاً.

تشبثت جولييت بالمقود وأدارته لتعيد السيارة إلى مسارها. كان وجهها ممتقعاً من الغضب على نفسها.

ألقت نظرة على سايمون الذي كان عابساً جداً فصاحت به: «لا تنطق بأي كلمة، ولا تنبس بأي حرف!».

أجابها متجهماً: «حاضر، ولكن من فضلك اركني السيارة».

ـ لا تكن سخيفاً. ماذا ستفعل، هل ستوقف أول سيارة قادمة وتكمل الرحلة؟

ـ لا، بل سأقود سيارتك بقية الطريق يا جولييت فأنا أريد أن أصل إلى البيت حياً.

ـ انس هذا الأمر!

قالت ذلك وضغطت أكثر على دعسة الوقود، وكأنها تخشى أن يقبض على المقود. انطلقت السيارة بسرعة متزايدة وتعمق عبوس سايمون. ولكنه لم يكن في وارد الدخول في معركة للسيطرة على مقود السيارة وهم على هذه السرعة، وكان أن اكتفى بالجلوس في مكانه، عابساً في وجهها، ولاحظت كلما رمقته من طرف عينها، أن جسمه النحيل بقامته الطويلة متحفز وينبىء بالوعيد.

وصلت السيارة إلى شانتري بعد عشر دقائق فركنتها خارج البوابة الحديدية. نزل سايمون منها فوراً، والتف حول السيارة نحو جولييت وفتح لها الباب وأمسك ذراعها بقبضة حديدية.

ـ انزلي من السيارة!

خرجت من السيارة ولكنها استطاعت الإفلات من قبضته: «لا تستخدم القوة معي!».

اتهمها: «لقد جازفت بحياتنا!»

عرفت أنه على حق. ولكنها بالتأكيد لن تعترف له بذلك.. سرت العدائية التي كانت تشعر بها في عروقها مثل النار التي تسري في الهشيم بطيئة لا يمكن إطفاؤها، وكانت عيناها تلتهبان بها. فحدق سايمون فيهما بأعصاب مشدودة.

ـ جعلتني أجفل.. لقد صرخت بي!.

لوى شفتيه: «لم أصرخ. بل تكلمت بهدوء تام وليس ذلك هو السبب الذي جعلك تجفلين، وأنت تعرفين ذلك. كلانا يعرف ذلك. لأن مجرد وجودك معي بمفردك داخل السيارة، يجعلك عصبية وكأنك ذاهبة إلى الجحيم. هل تريدين مني أن أخبرك لماذا؟».

ـ أنا أعرف الجواب! لأنني أكره رؤيتك!

أخرجت مفاتيح البيت التي أخذتها من والدها ليلة البارحة من حقيبة يدها وقدمتها إلى سايمون.

ـ خذ، افتح بنفسك باب البيت. أنا ذاهبة.

ـ ما زلت مستمرة بالهروب يا جولييت؟

كانت عيناه توبخانها أيضاً فعضت داخل شفتها وتصنعت الهدوء كي تبدو واثقة من نفسها.. يجب ألا تدعه يكتشف ما يدل على الضعف، أو الحيرة، لأنه سيقتنص الفرصة ويشغل ذلك لصالحه.

ـ يجب أن أعود إلى لندن. أريد أن أكون هناك عندما تصل أمي وزوجها اللذان استقلا الطائرة ليلة أمس، ولكني لم أستطع الاتصال بهما بعد، وهنالك الكثير من الأمور التي يجب مناقشتها بيننا.

ـ لدينا نحن أيضاً ما علينا مناقشته!

هزت برأسها وتمكنت من رسم ابتسامة صغيرة على وجهها: «لقد قلنا كل ما عندنا يا سايمون، أنا لا أريد...».

توقفت عن الكلام وشعرت بالذعر يستولي عليها لأنها رأته يغمض

عينيه ويترنح إلى الوراء كي يستند إلى السيارة، وكان وجهه شاحباً جداً: «سيم!» نادته ولفت ذراعها حوله كي تسنده: «بماذا تشعر؟ هل تحس بالإغماء؟».

مال نحوها وألقى بثقل جسمه النحيل المفتول العضلات عليها وتمتم بكلمات غير مترابطة: «ام م م...».

نظرت فيما حولها، على أمل أن تلمح والدها أو المرأة التي تأتي من القرية للتنظيف، ولكنها لم تجد أي إشارة تدل على وجود أحد.

ـ هل تستطيع السير إلى المنزل، إذا ساعدتك؟

سألته ذلك وهي تفكر إذا كان من الأفضل أن تعيده إلى السيارة وترجع به إلى المستشفى.

بدا أنه بذل جهداً ليفتح عينيه: «ماذا؟ اوه، نعم أعتقد أني أستطيع ذلك».

فكرت بصوت عالٍ: «ربما يجب أن أرجعك إلى المستشفى».

ـ لا، سأكون بخير بعد قليل، واشعر الآن ببعض التحسن.

بدا عليه فعلاً بعض التحسن للتو، وأخذت تقوده ببطء نحو البيت، ثم تناولت من يده المفاتيح وفتحت الباب الأمامي. استطاع سايمون التحامل على نفسه، بمساعدتها، للوصول إلى غرفة الجلوس مترنحاً، وسقط على الأريكة. كانت ذراعه تحيط بها، وبطريقة ما، تدبر جرّها معه ايضاً. فاجأها الأمر وشعرت بالذعر، وانطلقت منها صرخة خفيفة. ولكن الأوان قد فات كي تتجنب البقاء إلى جانبه. لقد أخذها على حين غرّة وللحظة لم تستوعب ما يجري فاتسعت عيناها بالحيرة وهي تحدق إليه.

لم تعرف كيف تبدلت المواقع، فهي التي كانت مستلقية على الأريكة وكان من المفترض أن يكون هو المستلقي عليها لكن الوضع انقلب فها هو يحني فوقها عوض أن تكون هي مكانه.

ولم تفهم حقيقة ما يجري حتى شعرت بيديه تضغطان عليها وتجعلانها

تغوص في الوسادات الموضوعة على الأريكة.

تفحصت وجهه، وأصبحت شكوكها يقيناً، فالضعف والإعياء اللذان بديا على وجهه تبخرا بصورة كاملة وظهر الوجه الذي تعرفه جيداً. الوجه القاسي والحازم للرجل الذي حطم حياتها ذات مرة من ذي قبل، والظاهر أنه عازم على تكرار فعلته ثانية.

ـ لم تشعر بالإعياء قط!

اتهمته بذلك وقد أصبح وجهها بكامله شديد الاحمرار.

راقبها سايمون بدوره بنظرات متهكمة جعلتها على وشك الصراخ.

ما أغباها! ألم يحن الوقت بعد كي تتعلم عدم الثقة مقدار ذرة؟ لم يكن مريضاً. لم يكن عرضة للإغماء. لقد كان ذلك كله خدعة منه، استخدمها كي يجعلها تدخل البيت وتستلقي على هذه الأريكة وتكون بمفردها معه. وقد نجحت خدعته أيما نجاح.

قال لها سايمون غير خجل البتة من خداعه: «أنا لست مستعداً كي أناقش المسألة معك وأنا واقف خارج بيني».

ـ لقد كذبت عليّ!

ـ لم أقل لك شيئاً! لقد أغمضت عيني واستندت عليك، وأنت قفزت إلى الاستنتاج. كان يجب أن أتكلم معك لأنك كنت ستهربين مني مرة أخرى، ولم يعد باستطاعتي تركك ترحلين.

ـ لن أعقد صفقة عملية معك، فقط لكي تحتفظ أنت بأملاك ومزارع شانتري وأحصل أنا على بعض المال. أنا لا أحتاج إلى المال كثيراً. بل أنا لا أحتاج إليه أبداً.

قال لها بصوت أجش وعميق: «وأنا لا أحتاج شانتري».

جحظت عيناها من الصدمة وعدم التصديق: «ماذا؟ ومن تظنني؟».

انفجرت به وهي ترتجف من الغضب وقد اصفر لون وجهها: «هل تظن أني غبية إلى هذه الدرجة. إذا ظننت أني سأصدق كلامك تكون قد فقدت

عقلك!».

قال لها وهو يبتسم بمرارة: «أنا أكثر غباء منك. لو لم أكن غبياً للحقت بك بعد ما هربت مع صاحبك اللندني. ولاقتحمت شقتك، ولضربته ضرباً مبرحاً ولجررتك من شعرك إلى هنا، وأكرهتك على إعطائي ما أريده منك!».

ردت عليه بغضب وإصرار: «لا شيء في العالم قد يكرهني على ذلك!».

بدا الحذر في عينه: «كوني صادقة مع نفسك. أنت تعرفين جيداً أنه كان باستطاعتي جرك إلى الفراش دون الحاجة إلى اللجوء للقوة».

أصبح لون وجهها أرجوانياً. وفتحت فاها كي تصيح به وتنكر ما قاله ولكن الكلمات لم تخرج من فمها، لأنها من جهة، لم تعد قادرة على الكذب، ومن جهة أخرى لم تعد مستعدة للإدلاء بأي اعترافات خطرة.

لم تحتج لذلك، لأنه كان يقرأ أفكارها والتعابير التي ارتسمت على محياها وهو يبتسم بمكر: «نعم، شعرنا دوماً بهذا الانجذاب. أليس كذلك؟. قد لا يتجاوب تفكيرنا دائماً، ولكن يبدو أن جسدينا يتجاوبان. ولكني لم ألحق بك لأني كنت مصدوماً كما كنت عندما هربت مني في المرة الأولى».

شعرت أن تنفسها توقف، وجف حلقها. ما الذي يقصده؟ أهي كذبة أخرى، خدعة اخرى لإضعافها والاستسلام له؟

ـ في الصباح الذي تلى ليلة زفافنا، عندما استيقظت واكتشفت أنك رحلت، شعرت بصدمة رهيبة.

أكمل ببطء: «في البداية أردت أن ألحق بك. رغبت في استرجاعك. وشعرت بأني أشبه بالوحوش بسبب الطريقة التي عاملتك بها تلك الليلة. كنت أعرف سبب هروبك. كنت أعرف بالتأكيد وشعرت بالذنب الشديد على ما فعلت...».

تمتمت، لم يجادلها ولكنه عبس وأومأ برأسه موافقاً: «كنت مذنباً!».

ـ نعم كنت ناضجاً بما فيه الكفاية لأعلم ما هو الأحسن، وتوجب عليّ أن أتحمل الملامة. ولكن الوضع كان أكثر تعقيداً من ذلك. انطلقت بالسيارة ثم ركنتها إلى جانب طريق عشبي على بعد بضع كيلومترات من هنا، وبقيت في داخلها وأمعنت في التفكير ساعات طويلة أحاول فيها أن أصل إلى قرار، ولكن كان هنالك ما يشدني ويمنعني من التحرك. لم يكن فقط الشعور بالذنب، أو الغضب، بل كان القلق عليك. كنت يافعة جداً، بحيث لا تقدّرين معنى الزواج.

ردت عليه بصوت مبحوح: «كنت أعرف معنى الزواج! نعم، كنت صغيرة السن ولكن ليس إلى هذه الدرجة! وليس هو السبب الذي دفعني إلى الهروب بل أنت الذي دفعتني إلى الهروب، لأنك لم تكن تحبني البتة! لقد كرهتني، ورغبت في إيذائي. كنت غاضباً لأنك شعرت أنك أجبرت على الزواج بي».

ـ كنت غاضباً لأن كلينا أجبر على الزواج تحت التهديد بالبندقية. لم أكن أعتقد أنك وصلت إلى السن المناسبة للزواج، أو على أي حال مستعدة لتحمل مسؤوليات زواج فعلي.

صرخت في وجهه وطفر الألم الدفين في عينها: «أنت لم ترغب في الزواج بي».

اعترف لها بصوت متثاقل ومتردد: «لم أفكر في الزواج، هذا صحيح. يا الله، لقد كنت تلميذة مدرسة! وكنت أشعر بالذنب بما يكفي لأني رغبت فيك رغم صغر سنك. داومت إقناع نفسي بألا أتمادى معك، ولكنك كنت تفكرين في اتجاه مخالف، كنت أفقد صوابي في كل مرة تقتربين فيها مني. هل عندك فكرة كم جعلني هذا الأمر أحتقر نفسي؟ حاولت أن أبتعد عنك، ولكني لم أستطع. كنت مثيرة أكثر من أي امرأة وقع نظري عليها. كنت فتاة في السابعة عشرة وأنا كنت أكثر من مستعد لأكون الرجل الذي يوفر لك الحب. الخطأ هو أنني لم أكن مراهقاً، بل رجلاً ناضجاً، لا يستطيع الاكتفاء

ببضع معانقات، كنت أريد منك كل شيء. وما جعل الأمر أسوأ، إدراكي أنك ترغبين في هذا ايضاً. كنت رائعة كثيراً جداً يا جولييت، رقيقة وجميلة وهذا ما دفعني إلى الجنون».

بدأت ترتعش، كان قلبها يخفق له حباً وكانت آمالها تجمح بعيداً. أتراه يعني ما يقول... هل أحبها فعلاً... ولكنه لم يذكر كلمة الحب، أم ذكرها؟ لقد تكلم عن رغبته فيها، عن أحاسيسه، ولكنه لم يتكلم عن الحب.

استأنف بتجهم: «ثم انفجر كل شيء حولي. وكان يجب أن أتخذ قراراً فورياً. ماذا كان بيدي غير أن أقول إني سأتزوجك؟ لم يتوفر لي الوقت كي أتيقن مما كنت أريده. ولكن الزواج بك خطر على بالي من حين إلى آخر، ربما... ذات يوم... عندما تصبحين أكبر سنا وتتيقنين من مشاعرك... قد نتزوج. ومن جهة أخرى، كنت أخشى أن يزول حبك لي في شهر أو اثنين، لأني ظننتك مفتونة بي فقط افتتان المراهقين القصير الأجل».

نظر إلى عينيها الزرقاوين فأسبلت رموشها كي تخفي عنه ما يعتمل داخلهما من تعابير. لم تكن متيقنة من حقيقة ما كانت تشعر به منذ ثماني سنوات، ومما إذا كان هذا المزيج المتفجر في داخلها، انجذاب جسدي بحت أو حب مراهقة أو الحب الحقيقي، ولكنها الآن تعرف حقيقة مشاعرها لأن حبها له كان يمزقها ولكنها لن تدع سايمون يعرف ذلك.

سألها بصوت هادىء: «هذا كل ما في الأمر، صح يا جولييت؟».

ردت عليه من دون أن تنظر في عينيه: «أفترض ذلك».

ثم نظرت إليه: «كان يجب أن نتريث قبل الزواج».

لوى فمه وقال: «وهذا تماماً لب المشكلة لأني لم أقدر على فعل ذلك ايضاً، ليس معك يا جولييت. كنت تعنين الكثير لي، ولهذا فقدت السيطرة على نفسي ليلة زواجنا. لا عذر لي، أعرف ذلك. وقد ندمت بمرارة على ما فعلت في اليوم التالي، ولكني كنت أيضاً غاضباً وحانقاً لأني شعرت أني

وقعت في فخ. ومع أنني كنت أرغب فيك، وضعت اللوم عليك وعلى أبيك. لم أقصد إيلامك.. أردت أن اكون لطيفاً معك، وأن أجعل تجربتك الأولى سهلة وممتعة، ولكن ما أن بدأت معك حتى فقدت السيطرة على نفسي».

انطلقت بالكلام: «لقد أخفتني حينذاك! لم أتوقع أن توجعني علاقة الحب، ولم يخبرني أحد... كيف تكون المرة الأولى...».

لم يكن عندها أم تتحدث معها في هذه الأمور وما تعلمته في المدرسة كان خليطاً من دروس التربية الجنسية المضجرة والرسوم التوضيحية التي لم تستطع متابعتها ووجدتها مزعجة.

قال لها برقة وهو يعبس: «أنا أعرف، أتظنين أني لم أدرك ذلك؟ كنت صغيرة السن، يافعة، وأنا ما كان يجب...».

عجز عن متابعة الكلام وتنهد: «ولكني فقدت صوابي.. كنت أرغب فيك بشدة يا جولييت، ولم أكن اقوى على السيطرة على الأمور حالما أبدأ بملامستك. ولكن عندما استيقظت واكتشفت أنك رحلت، أدركت ما الذي فعلته وشعرت بالإعياء الشديد. ولهذا لم ألحق بك لتعودي ولو فعلت ذلك لألحقنا بأنفسنا المزيد من الآلام. كان يجب أن أدعك تذهبين وتبحثين عن ذاتك وأن تنضجي. وهكذا عدت إلى البيت واتصل أبي بأمك ليسألها إن كنت معها. واستقر رأيي على الانتظار. فكرت أنه اذا كنت تكنين لي مشاعر حقيقية فستعودين حتماً. في البداية، اعتقدت أن الأمر لن يستمر أكثر من بضعة شهور، وعلى الأكثر سنة. ولكن مع مرور الوقت، أقررت لنفسي أنك لن تعودي ابداً، وكرهتك لذلك».

علقت على كلامه بابتسامة حذرة: «لقد أحسست بكرهك لي عندما جئت إلى كورنوول. لقد كرهتني، خاصة بعد وفاة والدك وبعد معرفتك مضمون وصيته».

نظرت إلى عينيه الرماديتين، باحثة فيهما عن الحقيقة: «وهذا كل ما في

الأمر الآن، أليس كذلك؟ لقد قلت منذ لحظات أنك لا تحتاج إلى شانتري ولكن هذا ليس صحيحاً، فأنت تعشق هذا المكان. وعشقته دائماً، وأنت تفعل أي شيء للاحتفاظ به».

رد عليها بفظاظة: «هذا ليس صحيحاً!».

اتهمته بمرارة وعدم ثقة: «اوه، بل أعتقد أن ذلك صحيح!».

ـ عندما قلت إنني لا أحتاج شانتري. كنت أعني كل كلمة. ربما تكلمت معك بخفة وبرودة أعصاب في كورنوول. ولكن هل اعتقدت فعلاً أني سأكرهك على معاشرتي لتنجبي لي ولداً رغم علمي أنك تكرهين فكرة إنجاب ولد مني؟ التهبت بالغضب بعد قراءة الوصية. وفكرت في أنك لم تتزوجي. وبما أنك ما زلت زوجتي خطرت الفكرة ببالي، فلن أخسر شيئاً إذا قابلتك وأخبرتك بشروط الوصية. وتصورت أن من المحتمل أن تعودي معي. ثماني سنوات مدة طويلة واعتقدت أن الأمر يستحق المحاولة، و...

لوى فمه وتابع: «وما إن بدأت تقليب الأمر في ذهني حتى أعجبتني الفكرة أكثر فأكثر، خاصة بعد أن تمكنت من ملاحقتك حتى كورنوول، وتبين لي أنك اصبحت مثيرة وجذابة أكثر بعشرة أضعاف مما كنت عليه. واعتقدت أنك منجذبة إلي أيضاً».

كان يراقبها برقة، ولكن جولييت تجنبت نظراته وغضت بصرها.

تنهد ثم قال: «ولكن هذا الرجل الآخر جاء، وهربت مني مرة أخرى. للمرة الثانية، تضعضع كياني وعلمت أنني عشت في أوهام وفهمت الأمور على غير حقيقتها، وأنك لا تهتمين لأمري ابداً، وبدا الأمر وكأنك اخترت الرجل الآخر، ووجدت صعوبة في تقبل ذلك. ولكن النساء، على أي حال، مخلوقات محيرة وذوات مزاج متقلب ويبدو أنهن يخترن أكثر الرجال غرابة. تمنعت عن اللحاق بك لئلا أتلقى منك صفعة أخرى فكبريائي تمنعني من ذلك. وكان أن عدت إلى شانتري لألعق جروحي وهناك اتصلت بالمحامي الذي طلبت إليه البدء بإجراءات الطلاق حالاً».

حدقت إليه وقد كاد تنفسها ينقطع: «أفعلت ذلك؟»

فهم من سؤالها أنها لا تصدقه، فصرخ غاضباً: «نعم، لقد فعلت ذلك».

قالت له: «حسناً، حسناً، لا داعي للصراخ!».

- إذاً توقفي عن الشك في كل ما أقول!

أخذت عيناه الزرقاوان تثقبان عينيها:

- المحامون يعملون ببطء ولكن محاميّ سيتصل بمحاميك خلال شهر أو أكثر بقليل.

جفّ حلقها. هل ما يقوله صحيح؟ لماذا فعل ذلك؟

- يعتقد محامي شانتري أنني مجنون، لأنه يعرف شروط وصية أبي وحاول إقناعي بالتخلي عن الطلاق، ولكني طلبت منه أن يهتم بأمور عمله ويمضي في هذه المهمة، وأعتقد أنه حالياً بدأ باتخاذ الإجراءات المطلوبة، وقضايا الطلاق كما تعرفين تأخذ وقتاً طويلاً قبل إنهائها.

- حسناً، بعد ثماني سنوات، لمَ العجلة؟

ردت جولييت بصوت مبحوحٍ وعيناها متقدتان بالغضب.

- لا تتكلمي وكأن الأمر نكتة. اللعنة عليك، أنا لا أجد أي شيء في ذلك مسلياً، لقد عدت إلى شانتري وأنا أشعر أني أصبحت من الأموات. أتعلمين لماذا لم أستيقظ عندما اندلع الحريق في غرفة نومي؟ كنت أشعر بيأس لذا لم أستطع النوم طوال الليل وما إن غفوت حتى أخذني النوم أي مأخذ، ولهذا اضطر والدك لجرّي إلى خارج الغرفة.

شحب لون وجهها وعضت على شفتها: «سيم، أنا آسفة...».

قاطعها بخشونة: «لا تقولي ذلك!» ثم أطبق عليها يعانقها فكتم بعناقه الصرخة الخفيفة التي كانت تعتمل في داخلها. لم تستطع مقاومته، أو مقاومة نار المشاعر التي اشتعلت في جسمها. والتفت ذراعاها حول عنقه واستسلمت له، ترد له العناق بأحسن منه، وتمرر أصابعها في شعره.

كان من الصعب عليها في الماضي منعه، أو الهروب مما ترغب فيه بشدة. لكن هذه المرة وأخيراً كانت ستدع الأمور تأخذ مجراها. إنها تحبه.. لقد أحبته لسنوات طويلة.. أحبته منذ أن كانت فتاة صغيرة السن غير مهيأة للحب. سايمون كان على حق بقوله إنها كانت يافعة وطرية العود. لقد استولت عليها العواطف الجامحة وأغرقتها، وكانت على حق عندما فرت.. وهو تصرف بحكمة عندما لم يلحق بها. فلقد أتاها الحب قبل أن يحين أوانه. وفي غير الوقت المناسب لكليهما. أما الآن، فحان وقتهما، لذا تعلقت به، حيث أوقد فيها نيران الحب.

عندما قطع سايمون هذا العناق، كادت تصاب بصدمة، وفتحت عينيها مذعورة. فهي ما تزال متعلقة به، وبداها تشدانه من شعره، ولكنه هزّ برأسه، واعتلت الحسرة والحذر محياه.

- لا يا حبيبتي. لن نخطىء هذه المرة، حتى بيننا وبين أنفسنا. سنبدأ من جديد، ونفعل ذلك بالطريقة الصحيحة. سنتزوج ثانية.

- ماذا؟

كانت تشعر بالدوار من قوة المشاعر التي اشتعلت بداخلها ولم تستطع أن تفهم ما قاله. لمعت عيناه فجأة بهزء دافىء وطبع على خدها قبلة خفيفة.

- استيقظي يا حبيبتي! ألا تفهمين؟ أننا إذا أعدنا علاقتنا الآن، في هذه اللحظة، فستبدأين الشك بي ثانيةً ولن تصدقي أني أريدك، وستعتقدين أن كل ذلك من أجل الاحتفاظ بالتركة، ولكن ذلك ليس صحيحاً يا جولييت.

بح صوته وبانت في نبرته مشاعر هزت أحاسيسها.

- أنا أحبك. لا أعرف بماذا كنت أشعر منذ ثماني سنوات، ربما كان خليطاً من الرغبة والعاطفة، على ما أعتقد. ولكن الذي اعرفه أن هذه المشاعر لم تمت برحيلك، بل ظلت مثل نار تحت الرماد في داخلي. وعندما رأيتك مؤخراً استعر لهيبها ثانية.

داعبت أصابعها شعره وابتسمت في عينيه: «اوه، يا سيم... أنا

أعرف... لقد شعرت بمثل هذه الأحاسيس. واعتقدت أن كل شيء قد انتهى، ثم ظهرت، ففقدت صوابي».

قبلها بحرارة وهو يحضنها ويتمتم بصوت أجش بكلمات الحب: «أنا أريدك من كل قلبي يا جولييت، لينك تعرفين...».

ردت عليه بصوت مرتجف وبضحكة مثيرة: «أعرف».

داعبت وجهه المتورد وشعرت بحرارة بشرته، وابتهجت لأن ذلك دليل على المشاعر التي تعتمل في داخله.

ـ سيم عندما أفكر أننا كنا على قاب قوسين من إفساد الأمر برمته.. كدت تطلقني، وكدنا لا نرى بعضنا بعضاً مرة أخرى، لولا الحريق!.

ضحك بنعومة: «الحمد لله أن غرفتي احترقت، ولو لم يحدث ذلك، لما عدت إلى هنا، ولما اكتشفت ابداً حبك لي!».

اهتزّت قليلاً وعبست: «شيء مخيف، أليس كذلك؟».

وفي كل مرة يأتيها هذا الخاطر تشعر وكأنها في كابوس.

ـ أنا أحاول أن ألاّ أتمعن كثيراً بذلك، فشعرة رقيقة تفرق بين التعاسة من دونك والسعادة معك. ولكن الحريق حدث، وأنت جئت لتفقدي. ولو لم تسمعي أخبار الحريق، لقدم القدر لنا شيئاً آخر. من يعرف؟ لقد حصلنا على فرصتنا الثانية، وهذا هو المهم الآن. دعينا نغتنمها وننجح هذه المرة يا جولييت. ولهذا السبب أريد عقد زفاف آخر وهذه المرة سنعقده في الكنيسة كي يكون الزواج مباركاً. وسوف نقضي شهر العسل في مكان رومانسي، ونبدأ حياتنا الزوجية حالما يتم ذلك.

أعجبتها فكرته، فابتسمت وقد بدأ رأسها يفكر بما سترتديه لمراسم الزواج في الكنيسة. ليست ملابس بيضاء، بل ثوباً حريرياً موشىً بلون العاج، ثوباً تستطيع أن ترتديه بعد ذلك في السهرات. انشغل عقلها، وهي تتخيل الحفل. وستؤكد على أمها وجورجيو حضوره.

وهي متيقنة أن والدها سيلتقي زوجته السابقة في أي وقت بعد أن تستقر

هي وسايمون في منزل شانتري، ولن يستطيع تجاهل أمها عندما تأتي لزيارتها، وجولييت تعرف أنها ستحتاج في أغلب الأحيان إلى وجود أمها معها عندما يصبح عندها اولاد.

عقدت حاجبيها قليلاً وقالت: «سيم... بالنسبة لعملي، ماذا يجب أن أفعل؟».

ـ حسناً، سنجد معاً حلاً لذلك، أليس كذلك؟

نظرت إليه مبتسمة وهي تشعر بالراحة.

لن يكون هنالك من مشاكل، سوف يجدان الحلول معاً. وهنالك حل لكل طارىء وسيعثران عليه بلا شك. لقد أصاب الهدف تماماً عندما قال: إن هذا قدرهما... وإنهما ولدا ليكونا لبعضهما بعضاً. والآن، وأخيراً سيكون باستطاعتهما إنجاح هذا الزواج.

* * *